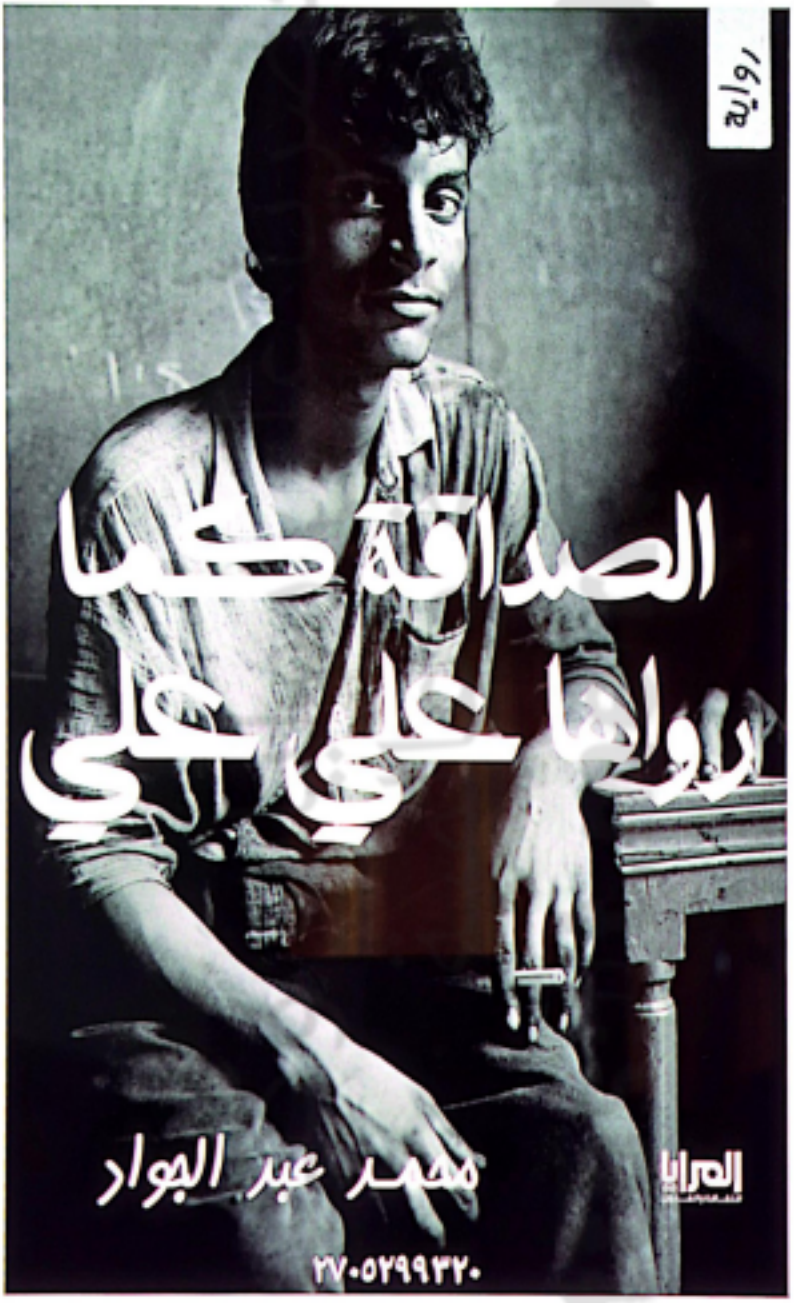

رواية
الصداقة كما
رواها علي علي
محمد عبد الجواد
المرايا
٢٧٠٥٢٩٩٣٢٠

إهداء

إلى الثلاثي العزيز

مصطفى سامي

عبد الرحمن الحلفاوي

محمد القليوبي.

حصريا على روايات وكتب عربية وعالمية
https://t.me/riwayat2025

مادامت ممتلكاتنا

ليست من هذا العالم،

ومادمنا نعرف يقينًا

أن لا عالم سواه،

فَقل لي أيّ شيء تبقّى لنا،

يا صديق؟

قُل لي،

أي شي تبقّى لنا؟

بل إن كومة فوضويةً

من الأحلام السود

هي ما تبقى لنا،

يا صديق.

أنخِل غونثالث

ترجمة مارك جمال

حصريا على روايات وكتب عربية وعالمية
https://t.me/riwayat2025

1

كان عم أحمد علي، هو أحد آخر من يملكون عربة كسح مجارين في القاهرة، بل وتحديدًا في حي أرض صندوق الرعاية، قُرب المعصرة، والمعفرة بضربات الأسمنت وهبو الأنفاس الغاضبة، وكان من الطبيعي أن يُشاهد بعربته الملونة باللونين الأصفر والبرتقالي، مثل عربة لعب كبيرة، يقودها في الشوارع الضيقة، ويتجاوز بها غرود المزابل والمطبات التي يقيمها أهالي غاضبون، ويصدر منها صوت تنبيه عجيب ومزعج، من الجهاز الذي أخذه من عربة نقل ثقيلة، وركبه في عربته، حتى يثير فزع الملاكي، كما كان يردد، لأن سمعة النقل الثقيل لا شك فيها. كان رجلًا مؤمنًا بعمله، وصاحب مزاج طيب، ويرى مهنته مستمرة حتى يوم يبعثون، فكان يرد على من يسألونه حول احتمالية ضياع عمله خلال زمن قريب:

- طالما هناك حياة فهناك شُخاخ، وطالما هناك شُخاخ فأنا موجود.

وهي العبارة التي اتُخذت مثل شعار كرنفالي له، وكتبها باللون الأحمر على الخزان الأسطواني الخلفي للعربة، متجاوزًا قواعد الأدب العامة، مع صور له، تصوره بعضلات قوية، ووجه غاشم، أو وهو يرقص بعصاته مع مجموعة من الصعايدة، وهي كلها إضافات، كانت تتم في ورشة علي علي لرسم اللافتات، من بنات أفكار عم أحمد علي، كلما كانت الغزالة رائقة، وجرى معه المال، وفي خطوة يقوم بها دومًا بانتظام ضمن خطوات أخرى، تؤطر لسعادته، وتبدأ بشراء نصف كيلو كباب من كبابجي هشام، مع زجاجتين من البيرة من ثلاجة أبو أمل بما فيها من فضائل، ثم يذهب إلى علي علي، فيجالسه في ورشته المزدحمة بعلب الطلاء والفُرش والوجوه الحزينة والمشوهة التي يرسمها على عجل، وكل لافتات الأفلام التي لن تُعرض على أحد، ولافتات المحال بأسمائها المختلفة، فيشم رائحة الورشة بانتشاء، ثم يبدآن العشاء، وشرب البيرة، وتدخين القص، ولا تنتهي الليلة سوى وقد نهض علي علي، فشمر أكمامه، ووقف يرسم رسمة اقترحها عم أحمد علي، بتركيز فنان خبير، وبصبر متعرق، في الشارع الضيق لورشته.

امتلك عم أحمد علي عربته هذه في أزمنة الضيق بالثمانينيات، والقصة، أن الرجل الذي تخطى الخمسين حاليًا، ولكنه يظهر بمظهر من تخطوا الستين، بوجه أسمر مربع بلون قطعة كبد طازجة، وعينين بيضاوين ضيقتين مثل أعين الصينين، بهما شحب حمراء تتسع وتضيق حسب حالته النفسية، وشعر فضي، وتجاعيد سابقة لأوانها حول العينين والفم، كان وقتها في أواخر العشرينيات، بصحة ثور، وسمعة طيبة في الأعمال الشاقة، حيث كان يعمل في كل شيء، من أول جمع القمامة: تحديدًا زجاجات البلاستيك والأوراق والكارتون، في بداية زمن الاهتمام بالقمامة كمنجم للذهب، وحتى الحدادة السريعة، في فك حديد يصلح للخردة، وكان يتعامل وقتها مع شاب أبيض له مظهر أوروبي، ولكن مع نفحة واضحة من البلطجة، يشتري منه أكوام ما يجمعه بالكيلو، وهو ما كون بينهما علاقة جيدة، انتقلت بعدها إلى خطبة أحمد علي لشقيقة الشاب الأبيض، والذي كان يدعى مسعد الإنجليزي، وكانت إنجليزية مثله مع درجات محسوبة من الفتنة، حتى خسر مسعد الإنجليزي خمسين ألف جنيه ببيعة خاسرة، وكان ذلك مبلغًا كبيرًا وقتها، وهو ما عرض مسعد الإنجليزي للحبس، فلجأ إلى عم أحمد علي حتى يسلفه فأجابه الأخير:

- هذا المبلغ يلزم السلفة من كل رجال بلدنا بالصعيد.

فعلق مسعد الإنجليزي:

- ولذلك يجب أن يعود.

كان يحاول إعطاءه ضمانة قائمة على التأكيد بأنه لن يورط نفسه في كارثة دين من قرية صعايدة كاملة، ولكنه تورط فعلًا، وصهين على المبلغ، وشاهده عم أحمد علي وهو يتملص من المسئولية، ويتحجج بشبل شتى، حتى فاض الكيل عندما أحضر له بضاعة جديدة منتزعة من مصنع خاسر، يقوم بالتصفية، وقدر عم أحمد علي وزنها بطن ونصف بسعر مميز، فقال لمسعد الإنجليزي:

- أعطني دفعة اليوم والباقي على شهر.

فقال مسعد الإنجليزي بثقة:

- لن أستطيع، فالسوق نائم ورحمة أمي.

كانت كارثة محققة، فالقرية التي استلف منها عم أحمد علي، استيقظت على غضب جارف، وجاءوا إلى أرض اللواء، حيث كان يسكن، قبل انتقاله إلى أرض صندوق الرعاية، بعربة فيها عشرين رجلًا غاضبًا، فأخذهم كما هم، وذهب بهم إلى مسعد الإنجليزي، وعملوا له ضجة كبيرة وتهديدات جادة، حتى اضطر الأخير إلى سداد المبلغ كاملًا، عدًا ونقدًا، أو ببضاعة، وهو يرتعش ضيقًا وخوفًا، واستغل عم أحمد علي الظرف بخبث أسيوطي أصيل، فطلب مبلغًا بسيطًا، عافية واقتدارًا، لتصفية عمله مع مسعد الإنجليزي، وترك شقيقته بلا مشاكل، وقال له:

- وإلا خطفتها ورحمتها من نتانة أخوها.

فأعطاه مسعد الإنجليزي عشرين ألف جنيه مقابل ضمانة اختفائه تمامًا، وهو ما حدث، لأن عم أحمد علي غادر أرض اللواء وقتها بلا عودة، ولم يعبر عليها سوى بعد ذلك بعشرين عام، فلم يجد مسعد الإنجليزي في مكانه، وسمع حينها أنه قُتل أيام ثورة يناير على يد جماعة موتورين، أرادوا استغلال الفراغ الأمني من أجل تصفية حوت الزبالة السابح في الوسخ، ولكن شقيقه الصغير، نبيل الإنجليزي، أمسك بالعمل بعدها، وطوره حتى وصلوا إلى التجارة في المخلفات الصلبة الثقيلة، وامتلك مخزنًا به عدة عربات كُهنة ، مركونة جوار بعضها البعض مثل وحوش نائمة في عتمة المخزن، لها عينان حزينتان ورائحة مزيتة.

سلم عم أحمد علي على نبيل الإنجليزي، واستغل وفاة مسعد، فأظهر حزنًا لائقًا بالخبر، ونظر إلى صورته المعلقة في وسط الشارع، ومكتوب عليها كلمة شهيد، فقال:

-تمناها ونالها.

كان مشهدًا رخيصًا ولكنه أداه بعناية، وحكى لنبيل الإنجليزي عن صداقته بالمرحوم، وعملهم المثمر معًا، ثم أخبره أنه أخذ منه وعدًا بالعثور على عربة مهنة حسنة الظرف وقادرة على العودة إلى الحياة مقابل مبلغ مناسب. لم يكن نبيل الإنجليزي، والذي كان أكثر حماسة للتجديد والتوسع من أخيه الأكبر، أكثر فهمًا للناس منه، صدق عم أحمد علي، باعتبار أنه صديق رفيع الطراز، يقطع طريقًا طويلًا للتعزية في أخيه بعد وفاته بفترة، وضيفه على حاجة ساقعة، وتذكره مشوشًا بخبوط الزمن، كوجه مألوف، ولكنه لم يربط بينه وبين الصورة المبهرجة الملونة لخطيب أخته، عندما جاء لخطبتها حاملًا علبة شوكولاتة سائحة ووردًا ذابلًا ومعه عجوز يدخن بأصابع متسخة وسيدة ممتلئة، كانت طيبة إلى الحد الذي جعلها تمسح الكوب الذي شربت فيه الشربات بعد الشراب، وسأله عن عمله فقال عم أحمد علي:

- مثل كل الصعايدة: نعمل في كل شيء.

كان أحمد علي قد استغل المبلغ الذي اقتنصه من مسعد الإنجليزي في الانتقال إلى حي جديد، وتأجير شقة بسعر منخفض، في حي أرض صندوق الرعاية. وقد اختار الحي بالحاسة وحدها، كان في ميكروباص متجه إلى حلوان، ليقابل مجموعة من أقاربه الألداء، يعملون في الحديد، وفكر في وضع المبلغ الذي تحصل عليه تحت تصرفهم كرأس مال تجارة حديد كبيرة، وعاش في خيالات العز مثل أحمد عز، ولكن الميكروباص قد تجاوز زحام الكورنيش ودخل من زخانيق دار السلام، حيث لا سلام ولا رب، فعبر بالصدفة على حي أرض صندوق الرعاية، فرأى عم أحمد علي وهجًا خفيفًا يحيط بالمباني القليلة هناك، مع نفحة زراعية خضراء من حقول قريبة، لم تُبنى بعد، ووجوه طيبة لمارة مستسلمين لقدرهم، وفي الوسط من كل هذا، رأى البناية البيضاء المصمتة، والتي تشبه قطعة مكعب كبيرة بيضاء بنافذتين مرتفعتين، حيث لا يتصور أحد كيفية النظر فيهما إلا عن طريق تخيل غول ضخم وطويل يستطيع الوصول لهما، بقياس المسافة بينهما وبين باب البناية

المصمتة، والتي كتب عليها بالأخضر، وبخط علي علي نفسه -والذي كان قد بدأ يحلق في الآفاق حينها كأول فنان حقيقي عرفته تلك الأنحاء الفاقدة للون- (صندوق الرعاية الاجتماعية لسكان حي مستشفى الرمد)، فشعر بما يجذبه إلى تلك الأرض، وحدد شعوره بقوله:

- كأن هناك حاجة تقول لك: انزل هنا يا عم أحمد.

نزل بالفعل، وسار في الشوارع البكر لتلك الأزمنة، وهو يتعرف على المكان، حتى رآه نواة لأرض لواء أخرى، فقرر أن يغرس فيها قوائم خيمته، ويقيم هناك إلى الأبد. كان الحي المنحوس، بلا اسم لذاته، وإنما كان ينسب إلى بنايات به، فعندما ظهر أول مرة إلى الوجود في الثمانينيات كان عبارة عن حقول شاسعة، لو سار فيها سائر بجدية، لتخطاها بعدها إلى مجاهل جنوب حلوان ومصانع المعصرة، ووصل إلى تخوم الصف وشم ريح هرم ميدوم الغريب تصل إلى أنفه من حقول شبحية وفلاحين صامتين وجواميس نافرة. وكان أول من أقام بيتا فيه هو الحاج سمير رهوان، وكان بيتًا من طابقين، ومعه حديقة صغيرة، أصر الحاج سمير رهوان على أن يسميه فيلا، فوضع على واجهته لافتة تؤطر ذلك، واستمتع وحده بحياة تشبه حياة باشوات الماضي بين الحقول، وكانت هناك بناية أخرى صفراء يتيمة لمستشفى الحميات، والتي أقيمت في بقعة قريبة من ترعة كئيبة المنظر، بعيدًا عن العمار، لأنها تخصصت في استقبال مرضى كل أمراض الجهاز التنفسي المعجزة، وما لا علاج لها سوى وضع المريض على فراش وتركه تحت رحمة الموت، وهي المستشفى التي أثيرت حولها سمعة سيئة من الفلاحين الذين يعيشون في تلك الأنحاء، حول الأطياف البيضاء التي تسير حول المستشفى ليلًا وهي تحمل شموعًا أو عصيًا خشبية، في عروض حزينة لا تنتهي، ويقف لها شعر الكبير ويشيب لها الصغير، وأصوات الصراخ التي تصدر منها، فاعتبرت مستشفى أشباح، وشوهدت الممرضات فيها على هيئة ملائكة جحيم أو عفاريت تطل من نوافذ الكابوس بين الحين والآخر، حتى صارت لعنة محققة، وتعزز ذلك بالظهور المزعج لعربة الإسعاف كل ليلتين، تقطع الطرق المظلمة، غير الممهدة، والملطخة بريش شخاخ الجاموس، فتوصل مريضًا أو تنقل ميتًا في موكب جنائزي، حتى صار المبنى الأشهر في المنطقة لأنه المبنى الوحيد، فصار الفلاحون يطلقون عليه مستشفى العفاريت أو مبرة الحميات بلا سبب واضح، ولم يعطه اسمه الرسمي في مملكة هذا العالم سوى الحاج سمير زهران عندما جاءه أول إيصال كهرباء بالكهرباء التي سرقها، فسألوه عن اسم الحي، حتى يدون في الدفاتر، فقال:

- حي أرض الحميات.

ظل الحي باسم المستشفى رسميًا وشعبيًا، حتى عندما بدأت المساكن تكثر فيه، وضاقت الشوارع، واختفى اللون الأخضر على حس اللون الترابي والطوب الأحمر، وصارت مستشفى العفاريت محاطة بعدة بيوت من ثلاثة طوابق، أقامها فلاحون طموحون، وفتحوا فيها تجارات قطع غيار وبقالة، وهو ما خفف من سطوة الأطياف على المستشفى، وإن لم يختفِ تمامًا، لأن السكان القريبين، ظلوا يسمعون صوت صرخات ساخرة وصباب بذيء ولعنات للحياة والموت معًا، تنبعث قبيل الفجر أو في ليالي الأعياد، وكان واحدًا منها، تحديدًا، يتكرر ليلة أول يوم في رمضان، مع تجلي خاص لأغنية رمضان جانا، يغنيها صوت شجي ناحل لشاب، وقيل بعدها أن صاحبها عفريت مريض زائف، وضع في المستشفى بحجة ضياع النفس في وحل الفشل الرئوي، ولكنه كان متروكًا لرعاية السماء وحدها، فلم يزره أحد من وقتها، وظل يُعالج بلا نهاية، من مرض غير موجود، برعاية المحسنين الذين اعتبروه، ولطول إقامته، علامة من علامات المستشفى، حتى صار ظهوره عاديًا، وهو يجر جسده الثقيل في الممرات، صامتًا أو يدندن كلمات غامضة، حتى يغني رمضان جانا في أول ليالي رمضان، ولم يُكتشف موته وكونه شبحًا سوى عندما وجدوا فراشه خاليًا ومرتبًا ونظيفًا، واعترف تمرجي عجوز أنه مات حزنًا بأول يوم وضعوه فيه في المستشفى، وأنهم كانوا يتعاملون مع عفريت طوال ذلك الوقت، ولكنه عفريت طيب ومغرد.

على أية حال، نُسيت مبرة الحميات مع الظهور المفاجئ والاحتفالي لصندوق الرعاية، والذي افتتحه الشيخ

الشعراوي في يوم مغبر، بلا ظل، بدعم من أحد أصحاب مصانع البسكوت، واكتسب اسمه الغامض: صندوق الرعاية، من صاحب المصنع نفسه، حيث كرسه، كما أعلن يومها، لرعاية المحتاجين من سكان تلك البقاع التي نشأت بالصدفة وبعيدًا عن عين الدولة، وكان المبنى قد ضمم بأكثر الطرق جرأة وتجريبية، مع ظهوره كمكعب أبيض مصمت، بنافذتين، لا يطالهما أحد بالداخل، لأنهما مرتفعان جدًا، وكان هناك مزلج حديدي يخرج من بابه إلى الشارع، وله جزء داخلي، منحدر ناحية فراغ أسود، توضع فيه صناديق الأرز والطعام، والتي انقطع الإمداد بها بعدها عندما مات صاحب المصنع، وأمسك أبناؤه بالإدارة، فصار صندوق الرعاية بناية مهجورة، لا عمل فيها، يعتبرها الأطفال الأكثر قدرة على التخيل سفينة فضاء أو عمدةً آليًا كبيرًا، ولكنه استطاع إكساب الحي اسمه.

حسب عم أحمد علي الحياة في حي أرض صندوق الرعاية بشكل عملي، ووجد أنه خالٍ من الزبالين، وباعة كل شيء، ومُربيي حلاليف أقياط، وأنه مؤهل لاستضافة صناعة المخلفات، لأنه حي تائه في دغل من التراب، ومتفسخ بالشمس منذ عقود، كما أن كل سكانه، كانوا وافدين عليه، وهو ما يحميه من الفضول والقيل والقال. صلى على النبي، ثم ابتاع بيتًا صغيرًا بالعشرين ألفًا من الجنيهات، دفع منهم مقدم عشرة آلاف، وترك الباقي حتى يقيم تجارة ناجحة، فأقام مخزنًا صغيرًا أسفل البناية لجمع كل شيء، مهتديًا بطريقة مسعد الإنجليزي، وتعامل مثله، فصبغ شعره بماء النار، ليكون أشقر مثل شعره، وبحث عن صبية يجمعون له كل شيء، فقُوبل بالعلوقية، وبمحاولات تملص شتى، فقرر الاعتماد على فحولته ليجمع هو القمامة من بقاع محيطة بالحي، وأثناء ذلك، بحث عن رشام يصور رحلة متخيلة قام بها إلى الحاج، حتى يكتسب لقب الحج، في خطة محكمة إلى الوصول سريعًا ليكون من أقطاب تلك البقعة غير المباركة، وكانت تلك أول أيام لقائه بعلي علي، حيث وجده شابًا ضامرًا، له شارب مسطرة، وشعر سايح، ووجه بريء، وبعيني فنان فرهف ومزاج رائق وذوق واضح في الزي والمشرب والمأكل. اتفقا سريعًا في كل مناحي الحياة، وتبادلا الرأي حول أشياء كثيرة، ورسم له علي علي صورة موكب أسطورية، مكللة بألق أخضر وعصافير جنة وردية، وهو يرتدي مئزر الحجيج الأبيض، ويسير في طريق جبلي طويل، وفي النهاية، تنتظره الكعبة، تشبه مبنى صندوق الرعاية.

تحول بعدها عم أحمد علي، صاحب مخازن الزبالة، إلى الحاج أحمد علي، وهو ما أكسبه احتراما حقيقيا، لأن الحج كان ولا زال من أغلى الشعائر، وبدأ يكتسب وزنًا ثقيلًا في عالم صندوق الرعاية، حتى تكونت لديه ثروة لا بأس بها، ضيف معها علي علي على كبابجي هشام، وكانت تلك أول مرة يبدآن معًا رحلة الصداقة القائمة على الاحتفال والأنس في ورشة الأخير، وكان عم أحمد علي يحب الجلوس في ورشة علي علي بشكل خاص، لأنه افتتن بطريقة رسمه، ولافتات الأفلام التي يعلقها في كل مكان، وتطور الأمر معه، فطلب بثقة، أن يرسم له لوحة عارية لامرأة هي الأجمل في هذا العالم.

كان علي علي موهوبًا حقيقيا، وُلد بالفن وعاش بالحب. لم يفلح في أي دراسة، فقد كانت رغبته المحمومة في الرسم تدفعه إلى حرق أطنان من أوراق الكتب المدرسية والكشاكيل والكراريس في الرسم: يرسم المدرسين وزملاء التخت وطوابير الصباح الكئيبة في عتمة شتاءات ديسمبر، ويرسم صورًا متخيلة لعفاريت ووحوش، وأفراد أسرته، وكان يقوم بذلك بشيء من التبتل والانشغال الكلي عن العالم، حتى غد مجنونًا، فقاموا بفصله من المدرسة لأنه لم يبدِ أي تجاوب مع الحسابات البسيطة وعلوم اللغة، كما كانت عنده قدرة صعبة على التقاط أبسط أمور الحياة، وفهمها، وكانت الكارثة عندما سأله مدرس، في حضور موجه تعليمي، عن رئيس البلاد، فقال، وكان الزمن في بدايات السادات:

- لا أعرف.

فارتبك المدرس، وقال بصوت مرتفع:

- سيادة الرئيس أنور السادات.

فاكتفى علي علي بهز رأسه، ثم رسم موجه التربية والتعليم كرئيس، في عدة صور، ولسبب ما، لعله ضيق ملابس الأخير، تخلى عن رسمه بثيابه، فأظهره كما ولدته أمه، وقام بذلك في سرعة وكفاءة فائقتين، وعرضها على الواقفين، فسأله الموجه:

- اسمك ايه يا قليل الربابة؟

فأجاب علي علي:

- علي علي علي علي.

اعتبروها مزحة ثقيلة من طفل نصف متخلف، وأخذوه إلى لجنة تحقيق، واكتشف أن اسمه مكرر فعلًا، فبعثوا بطلب أولياء أمره، ولأن علي علي كان تربية عمته، بعد وفاة أبيه بالبلهارسيا وأمه بالعصبية، وزواج شقيقتيه الوحيدتين، في سن لم يتعدَ الخامسة عشرة، في إمبابة -وكانوا أسرة من النوبيين المهاجرين من أيام سد أسوان الأول، ولكن علي علي، والذي وُلد أبيض ولامعًا مثل الفضة، كان طفرة غير مفهومة، اعتبرها بعض رجال العائلة الأقل أدبًا دليلًا على العوار الذي يشوب سلوك أسرة مرجان التي تنتمي لها أم علي علي، حيث كانوا يعملون في الحب الممنوع في جنوب السد شمال السودان قديمًا. وعلى العار الذي لحق بأسرة العلالاوة، ولكن كبار الأسرة، والعالمين بكل شيء، ذكروا تكرر تلك الطفرة في عدة رجال من الأسرة، بلا سبب مقنع، وأنها تأتي ومعها موهبة غريبة وشيطانية- فلم تأبَ عمته علوانة علي، لأنها كانت تطرده أكثر من مرة لرسمه كل شيء على جدران المنزل وورق الجرائد. ولذلك تم فصله، وعاد إلى منزل عمته، فقالت له يومها:

- منذ ذلك اليوم، أنت ابن الطريق، فابحث لك عن لقمة وأسرة.

تقلب علي علي بين صنوف الطفولة المشردة السعيدة، فعاش لفترة مع أبناء الكاوتشوك، والذين كانوا يعيشون داخل الإطارات الضخمة للعربات النقل، ينامون فيها مثل أبراص ساكنة، يقضون فيها الليل، ثم يقتلون النهار بحثًا عن سيدة تسير متكاسلة، ليسرقوا حقيبتها، أو شاب يحمل حقيبة عمل، ويجد السير في

هدأة الصباح للحاق بالعمل، وكان العمل فنيًا إلى حد ما، فرأى علي علي مشهد انتزاع حقيبة من يد صاحبها تدريبًا رياضيًا على الخفة، ولكنه انتقل بعدها إلى حياة العمل الشريف، عندما استيقظوا يومًا فوجدوا زميلهم شطة مقتولًا داخل الإطار الذي ينام فيه، وكان سيخ حديد صديء مغروس في منحره، حتى إنه اخترق الإطار السميك، فسمع زميل آخر يردد بيقين وفزع:

- إنه عقاب الله، ويد الملاك هي من تفعل ذلك.

لم ينم ليلتها، ولا الليالي متعاقبة، لأنه ظل يتخيل الملاك الأحمر القاتل وهو يسير بين الإطارات، ويحمل سيخًا طويلًا، ويقرأ القرآن بصوت حزين، فأعلن توبته، وبحث عن عمل آخر يجده بيديه، فوجده في الدوكو ودهان العربات، وهو ما استمر فيه شطرًا طويلًا من طفولته، ومع ثقة الأسطى صاحب الورشة فيه، أعطاه بعض الجدران في الجراج الخلفي لوحة خالية للرسم الحر، فرسم عربات واحتفالات، حتى وصلت سمعته كصاحب يد سحرية إلى المعلم حبيب، وهو مسيحي متدين من المنيا، امتلك عده مخازن للرولمان بلي، في نواحي الجمعية بإمبابة، وكان راغبًا في رسم جدران كنيسة صغيرة وقديمة، قرر تجديدها، وفتح عهد جديد مع المسيح، فطلب من علي علي أن يرسم رسومًا من الكتاب المقدس، وتحت توجيهات قس الكنيسة، فوافق علي علي بعد إذن معلمه، وبدأ رحلته الفنية المقدسة رسميًا، حتى ملأ جدران الكنيسة برسوم شبه ناطقة لأيام المسيحية الهامة، وزين سقف الكنيسة برسمة معجزة ليوم الدينونة ونزول عمانوئيل بكرسي العرش من السماء ليحكم الأرض، وهو ما دشنه فنانًا حقيقيًا في هذا العالم، وكسب مبلغًا مناسبًا لأول مرة، فذهب إلى أسطى الدوكو، وعرض عليه رغبته في ترك العمل ليعمل طائرًا حرًا بالريشة واللون، فوافق الأخير رغم خسارته فيه، وكان رجلًا طيبًا ومنصفًا، ففتح علي علي بالمبلغ الذي كسبه من الكنيسة دكانًا صغيرة جدًا، جلس فيه بين لوحات رسمها على عجالة، وجاءه أول زبون بعدها، وهو قصاب شاب، طلب منه رسم مشاهد الحج على جدران بيته، فصار يرسم رسوم الحج بلا توقف، ومعها بعض رسوم القديسين للمسيحيين، حتى ظهر له رجل ملتحٍ ذات يوم، طيب الملامح، ولكن في إحدى عينيه حول مبهر، فجالسه مجالسة الأخ لأخيه، ثم أخبره عن جابر الريان، رئيس جمهورية إمبابة، والذي يريد إقامة دولة الإسلام القديمة مرة ثانية وللأبد، والذي لم يعجبه رسمه لهذيانات النصارى ومعتقداتهم الفاسدة، وأفهمه، بلهجة عنيفة وناعمة، أن ورشته في خطر، فشعر علي علي بالكدر نفسه الذي شعر به وقت الملاك أبو سيخ، ونظر للسماء وقال:

- واضح أنك لا تحبني وليس بيننا عمار.

جمع أدواته، ومبلغًا بسيطًا، ثم بحث عن مكان لا وجود فيه لأحد سوى بعض الناس الطيبين، حي حديث ينشأ بعيدًا عن الأحياء القديمة، فكانت أرض صندوق الرعاية، أو أرض الحميات، والتي اكتشفها في رحلة بحثه من خلال معلومة أنها المكان الأرخص سعرًا للإيجارات في المعصرة، ولا وجود فيه لسيد بعينه، ويبتعد عنه الناس لأنه خلاء ومليء بقطاع طرق وأشباح في مستشفى الحميات، فوصل هناك في يوم مغبر، وقرر افتتاح الدكان للعمل على السكان القلائل، وانتظار التكاثر كحل طبيعي لرزقه، وحتى يدشن وصوله، قام برسم رسمة كبيرة لفلاحة جميلة، تحمل فوق رأسها نخلة طويلة، وتحمل فوق يديها صينيتين عليهما أوعية لبن، مما رآه في الفلاحات اللاتي كن يملأن الحي وقتها وطبعها فوق الجدار الشمالي من مدرسة نشأت حديثًا اسمها مدرسة شمال المعصرة الابتدائية.

خلال أعوام قليلة، غرف علي علي كرسام يده ثلف في حرير، رخيص الثمن، ولا يبحث عن المال غالبًا، بل يتقبل الدفع بكل شيء، فكانوا يعطونه وجبة محشي ساخنة، أو ديك شامورت مسلوق بعناية، مع مرقه والأرز، وفضائل الطعام، أو جلبابًا بلديًا مفصلًا جيدًا أو قميصًا من الشيفون، أو ترجيلة مرصوصة الأحجار بيدي خبير، حتى صار الرسام الأول في حي صندوق الرعاية، رسم كل لافتات المحال وإعلانات الحج والزواج والأفراح والجنائز، وتعدى الأفق عندما اختاره السيد رمضان القويري، الذي افتتح صندوق الرعاية، ليرسم اسم الصندوق والشركة، وصورة كبيرة لسكويت الشمعدان، وهو يمد أيادي الخير للناس، فوق واجهة صندوق

الرعاية وعلى جوانبه، وأخذ من ذلك المبلغ الأكبر الذي سيأخذه في حياته، والذي استطاع به تجديد دكانه، وشراء أدوات جديدة، وشراء عدة بلوفرات ثقيلة، كان يرتديها شتاءً، كلها باللون الأسود، أو أقمصة بيضاء، كان يرتديها صيفًا، وتلونت جميعها بألوان الطيف، مع كثرة الاستخدام، حتى صارت ملابس عمله، ولا يغيرها سوى بأقمصة سوداء أو نبيذي، يرتديها في أوقات المزاج أو الدلع، ورغم كل أعمال علي علي الكثيرة والمشهود لها بحسن الذوق الفني، إلا أنه لا يفخر بشيء فخره بتلوين عربة الكسح التي امتلكها عم أحمد علي في يوم غريب.

والفكرة أن تجارة الزبالة، والتي أهلت لعم أحمد علي مصدرًا مستمرًا للرزق، دفعته إلى التفكير في العودة إلى غريمه القديم مسعد الإنجليزي لبحث التعاون بينهما، وفض الخلاف القديم، وكان هدفه الأساسي هو ممارسة معلمته الجديدة عليه ، بعد عمله في خدمته، وعندما اكتشف مقتله وإدارة شقيقه نبيل الإنجليزي لكل شيء، اعتبرها فرصة جيدة للشراكة. تحدثا حول كل شيء، وعندما فهم عم أحمد علي أن العمل كله في المخلفات الصلبة، سأله بفضول:

- طيب ممكن أشوف؟

عرض عليه نبيل الإنجليزي مخزن الكهنة بألق واضح، وكان يسير بين أكوام الحديد والعربات ويربت عليها بطريقة الآباء المحبين، ويردد أسماء أعطاها لها، فهناك الألمانية الشرسة، والتشيكية القارحة، والروسية القحبة، وبين كل هؤلاء، هناك فتحية الطليانية، أم الخير، والتي يعتبرها نبيل الإنجليزي من درر تاجه الحديدي الصدىء. أغرم عم أحمد علي بعالم العربات المكهنة هذا، ومس داخله وترًا منسيًا من حب الزيت وروائح الموتورات وامتلاك لوري كبيرة، كما كان أعمامه يعملون، على طريق الصعيد، طوال نصف قرن، ولذلك تعلق بفتحية الطليانية، والتي أخبره نبيل الإنجليزي أنها عربة كسح إيطالية الصنع، صنعت بالستينيات، ولها قدرة على كسح شوارع كاملة، لأنها عملت بكسح برك المجارير والمطر من شوارع ميلانو، وجاءت مصر بصفقة تكهين كبيرة، واشتراها نبيل الإنجليزي بعلاقاته المتعددة بالجمارك، وربت على عينيها اللامعتين السعيدتين أبدًا وقال:

- أقسم بالله لا ترتوي كأن في بطنها دودة بحجم حياتي.

لم يغادر عم أحمد علي مخزن الكهنة من العربات سوى وقد تعاقد على شراء فتحية الطليانية، وبعد شد وجذب ناعمين مع نبيل الإنجليزي، تنازل الأخير عن العربة مقابل مبلغ كبير، اتفق مع عم أحمد علي على دفعه عدًا ونقدًا، وجاء به في حقيبة كبيرة متربة، احتضنها طوال الطريق من صندوق الرعاية إلى أرض اللواء، ثم جز العربة عن طريق عربة نقل كبيرة. لم يفهم نبيل الإنجليزي أبدًا سبب افتتان عم أحمد علي بعربة الكسح، ولم يقل سوى أنه صعيدي، ويعرف من أين تؤكل الكتف، وله بالتأكيد مصلحة فيها لا يعرفها أحد غيره، ولكن الحقيقة البسيطة هي أن عم أحمد علي رأى فيها ضمانة بالتحرك الدائم، بعيدًا عن مخازن جمع القمامة، وبتحصيل مبلغ خفيف من المال، يمكن أن يؤمن له وجبات الأنس والسهر مع علي علي، ليترك المخازن تحت رحمة أحد صبيانه المخلصين. كان حلمه، منذ الطفولة، والذي كبر معه سرًا، ثم أورق افتتانًا بفتحية، هو أن يكون صاحب عربة نقل أو لوري كبيرة، ينهب بها الطرق، ويحكم السيطرة على حياته، ويحلق حرًا بين الصحاري والغيطان والجبال. كان عمه عبد الرحيم أسدًا حقيقيًا على طرق الصعيد، وكان يرسخ لمكانته هذه بحوادث يعاقب بها من يتعدونه في الطريق، ويخرج منها بلا دم أو خسارة مادية، وببعض الخدوش البسيطة في هيكل العربة، يعتبرها مثل جروح وجه الجدعان والتي تؤكد شجاعتهم في عالم من الجبناء، وكان يغطي هيكل عربته كلها برسوم لأسود تحمل سيوفًا، وألقاب حازها طوال عقود من العمل الشاق. رافقه عم أحمد علي، عندما كان طفلًا، أكثر من مرة، وشاهد ما يجري على الطريق، ولمس الهواء الدافق الذي يدفع للتحليق في الهواء، وسمع عبد الرحيم وهو يقول:

- النقل هو أحلى عمل بالدنيا.

فأسرها في نفسه كمهنة أحلام، ثم نسيها مع الوقت، حتى اكتملت داخله بأحلام قصيرة عن طرق لا تنتهي، يطير فيها بلوري صفراء جميلة، ويضرب كلاكسات توقظ الموتى، وجاءت فتحية الطليانية لتحيي كل ذلك من تحت التراب، ولأن كسح المجارير في أرض صندوق الرعاية، كان ولا زال يتم بالطرق البلدية، فقد وجد في العربة فرصة عمل مضمون، كما تأكد من ضياع شبكات المجاري في القرى المحيطة بأرض صندوق الرعاية، وحتى المعصرة، وهو ما علق عليه:

- جاءت ببركتها ورزقها.

قسم عمله بين مخازن الزبالة وبين فتحية الطليانية، وبدأ يخرج في مهام خاصة لكسح مجارير طافحة من عدة مناطق بحي أرض صندوق الرعاية، وبدون أجر لنشر سمعته كأول كاسح في الحي، وفي أنحاء المعصرة كلها، وفي أيام قليلة، بدأ صوت عربته يسمع وهي تنهب الطريق بقرقعة عظام حديدية، وتثير ضجة غبار حولها، وصارت تُشاهد في صفحة الظهيرة الحارة، وهي تسير متقافزة في الشوارع غير الممهدة، وتنثر ماء الكسح، يطاردها الصبية والأطفال كعربة سعادة، تنشر الماء البارد في أيام الصيفية التي لا تنتهي، حتى أتقن عم أحمد علي عمله ككاسح، وقرر تلوين العربة بألوان الطيف، وكتابة أرقام هواتفه عليها، ليقدم خدماته في الكسح ليل نهار، فقام علي علي بذلك على أتم وجه، فدهن الصندوق بالأصفر الفاقع، وجعل الحواف حمراء، ورأس العربة نبيذيًا، مع أعين بأهداب خضراء، ولون الخرطوم بلون برتقالي مكتوم، ثم وضع ملصقات جماجم وشياطين راقصة في أنحاء العربة، كما طلب عم أحمد علي، واحتفلا معًا بعدها بلفة حرة في الحي، وخروج إلى شوارع المدينة، وعلق علي علي على جمالية الجلوس في قُمرة عربة نقل مرتفعة بقوله:

- كأنك ربنا وتنظر للعالم من فوق السحاب.

وهو التعليق الذي اعتبره عم أحمد علي معجزة كلامية من معجزات علي علي، حيث كان يقول دائمًا أنه يختار الكلمة المناسبة في الوقت المناسب، رغم أنه لم يكمل التعليم مثل حالاته، وبنهاية اليوم، ذشنت العربة رسميًا، واستعدت للعمل بأجر من اليوم التالي.

كانت مشاوير عم أحمد علي بالعربة تبدأ في العاشرة صباحًا، كل يوم، بعد شُرب كوب من القهوة السادة، وتناول بعض الجبن والعسل الأسود، وحرق خمس سجائر سوبر أو حجرين قص. يخرج في البداية من المخزن الذي وضع فيه فتحية، والقريب من مخازن الزبالة، ثم يمر على الشوارع الرئيسية التي كونت نواة الحي، يدق آلة التنبيه والتي تصدر صوتًا طفوليًا مميزًا، فيخرج له من يريد الكسح، فيوقف العربة، وينزع غطاء البالوعة الفرادة، ثم يضع الخرطوم البرتقالي الطويل، والذي يشبه ثعبانًا مُجعدًا، في فوهة البالوعة المظلمة، ويبدأ في الشفط، ثم يأخذ أجرته، ويكمل مسيرته حتى يصل إلى طريق الرشاح الخلفي، والذي يلف الحي من ناحية الشمال، ويمر على مستشفى الرمد، فيبدأ رحلته الدسمة في المرور على الأحياء الميتة والقرى المنسية والتي تحتاج كسحه، ولا ينهي جولاته هذه إلا قرب الثالثة عصرًا، وهو يشعر بالارتياح الكامل، فيركن فتحية في المخزن، ثم يجلس ليباشر ما حدث طوال النهار في جمع الزبالة من خلال تتبع حركة دفتر الوارد والصادر، وقراءة أرقام الميزان، وبعدها، يفر مساءً على علي علي، ليقضيا الليلة معًا، وظل ذلك حتى تزوج عم أحمد علي بفتاة عشرينية اسمها صابرين، ابنة لتاجر أجهزة كهربائية مستعملة، رشحها له بعض الطيبين، وقال لها في أول لقاء بينهم، أخذها فيه بالعربة، وذهبا ناحية كورنيش المقطم:

- لا يوجد في حياتي أهم من اثنين: فتحية وعلي علي.

وشرح لها، بأبسط الطرق، أن فتحية هي طموح مبدئي للوصول إلى أسطول عربات كسح، تشفط خراء الشعب المصري كله، وأن علي علي هو صديق العمر والأخ الذي لم يتحصل عليه، فهزت رأسها تفهمًا، وأظهرت قبولًا مريحًا، ولكنها شغلته بعد الزواج بوجبات دسمة وليالي حمراء ناعمة، جعلته يبتعد عن مجلسه مع علي علي بين الحين والآخر، حتى صارا لا يتقابلان سوى مرتين بالأسبوع، إحداهما ليلة الاثنين والأخرى ليلة الجمعة.

ظل حال الصديقين على ذلك الأمر، وعملهما منتظم، مثل صداقتهما، حتى أنجب عم أحمد علي ولذا أسماه علي، وكان يؤكد أن تلك التسمية أعفته من الالتزام الأخلاقي تجاه والده المنسي في الصعيد، والذي توفي وهو صغير، بينما كان يحاول البحث عن آثار أسفل بيتهم في البلد، والقريب من معبد كبير، تمرح الغربان والخفافيش في ممراته، ولا يذكر منه سوى أنه كان طيبًا، ولا يضربه بالمرزبة أو يلسعه بالسيخ المحمي كما يفعل باقي الآباء حولهم، وتجاه صديق عمره، والذي أعلن دون مواربة أنه يعتبره عمًا لابنه، وأذن في أذن الرضيع فكان يقول ضمن ما يقول:

- واسمع كلام عمك علي علي.

والحقيقة أن ميلاد علي الصغير دفع عم أحمد علي لاستعادة التفكير في شأن تجارة الآثار كمهنة أحلام أخرى نسيها مع الكبر، فقد كانت هناك خمى حقيقية وقت طفولته، دفعت كل رجال القرية للسهر في غرف معتمة داخل بيوتهم، يبحثون بجدية، من خلال حفر بلا قرار وثقوب مخيفة مثل الليلة السوداء عن قبس من ذهب أو فضة، ويتذكر جيدًا كيف اغتنى عم عبد الرسول في القرية، بسبب عثوره على تمثال بحجم الكف، وجده عندما حفر أسفل الفراش. أسر إلى علي علي بهواجسه، فقال الأخير بجدية:

- ولكن لا آثار تحت أرض صندوق الرعاية، الفراعنة كانوا أكثر ذكاءً من أن يدفنوا في بقعة نحس.

ولكن عم أحمد علي، والذي خبر صنوف الثرب من عمله، لاحظ أن التربة طينية في تلك الأنحاء، ولكنها تخفي أسفلها مُدن حجرية كاملة، وقارن، بعفوية ولكن بدقة علمية مفاجئة، ما بين التربة الرملية التي تحفظ الآثار في الصعيد وتربة بحري الخرائية، والتي تتراكم مع الأعوام، ولكنه ومع الكسح المستمر اكتشف أن هناك احتمالية لقيام تلك البقع على آثار، ولكن الأمر كله متعلق بثقافة الفلاحين هنا. كان قد حدد مستشفى الحميات أو العفاريت هدفًا لرحلته الجديدة، وقال إن السبب هو كثرة العفاريت حولها:

- كلما كثرت العفاريت في مكان أعرف أن هناك آثارًا لأن الفراعنة كانوا كفرة وكانوا يرصدون لها حراسًا.

هكذا قال، ضمن هذيانه حول الفكرة، ولم يملك علي علي سوى القبول بذلك الجنون، باعتبار أنها فورة جنون سرعان ما تهدأ على ضفاف الحقيقة. بدأ عم أحمد علي التنفيذ في يوم بلا شمس، وجاء بعدة عمال مثل البغال، وحدد لهم ثمنًا جيدًا مقابل الحفر وبدون السؤال عن السبب، وبدأه عند السور الجنوبي للمستشفى، بعيدًا عن أعين المرضى والأطباء، وتحت أجمة من شجر كئيب الشكل. استمر الحفر ليل نهار، وكانوا يرون، بين الحين والآخر، أطياف عفاريت المشفى الشهير، تمر بين الأشجار، ووقف معهم واحد عجوز، كان يرتدي زي ممرضين قدامى، فطلب سيجارة، دخنها بالعكس، ليثير رعب العمال، ويتوقف العمل هناك إلى أجل غير مسمى.

كان فشلًا مبدئيًا، لم يرض به عم أحمد علي، فقاوم القدر وجاء بعمال من بلده بالصعيد، مقابل مقاسمته أي أثر يجدونه، فعملوا بهمة تفوق همة السابقين، وكانوا يتميزون بالجرأة الكافية لأن يصرفوا الفضوليين، أو يقولوا عندما يراهم البعض نهارًا:

- بلدية، نقوم بتحسين خدمة الصرف الصحي.

وقد استطاعوا تجاوز ألعاب العفاريت بقلب قاعد، وعقدوا صداقة مع العفريت المدخن، وعرفوا منه اسمه وصفته وكيف مات بتشخيص خاطئ من ممرض حاقد عليه، لأنه كان يعاكس النسوان ويوقع بقلوب الفتيات، وكان شابًا وقت وفاته، يشبه أنور وجدي وإن بنكهة شعبية حريفة، وعندما سأله أحد العمال عن كيفية ظهوره شيخًا رغم موته شابًا، قال بحزن:

- الموتى يشيخون أيضًا في الناحية الأخرى.

كانت وقفًا ضائعًا، لم تعوضه الهمة العالية ولا الحفر الجاد، فبعد أن وصلوا إلى أبعد قاع منظور، وبعدما أزالوا الجذور الميتة والحية، وجدوا مقبرة كاملة مليئة بالعظام، مبعثرة في فوضى محزنة، وكان أغلبها يرتدي جلاليب قديمة وعمائم، ولم يكن أحد يعرف أنهم اكتشفوا مقبرة جماعية قديمة، من أيام محمد علي، كانوا يدفنون فيها موتى الحمى والأوبئة جوار المشفى القديم، والذي أقيم مستشفى الحميات على أنقاضه، وكانوا يعتبرونه مقبرة مضمونة لراحة الموتى المتألمين، بعيدًا عن العمران، يقف وحده مثل كارثة وسط الزراعات. اعتبروا ما وجدوه مقبرة قديمة وعادية، فرددوا الفاتحة والأدعية، ثم أعادوا ردم ما قاموا به، وعادوا لعم أحمد علي بالمعلومة الواضحة: لا فراعنة هنا ولا مساخيط، والحي كله يقع على بركة من موتى سابقين وفقراء من أسلاف الفلاحين، وقال له أحدهم، وكان أكبرهم سنًا:

- غد معنا إلى الصعيد وشاركنا الحفر غرب البلاد، ديك النهار عثر ابن خالك على تمثال قطة بحجم عضوه الذكري، وباعها بخمسة ملايين، واشترى شقتين في المدينة.

ولكن عم أحمد علي لم يتصور عودته إلى بلده البعيد، وكان يحمل ضغينة خاصة تجاه حياة الناس هناك، ويعتبرها بلا طموح ولا فرص، فرفض العرض بأدب، وضيف الرجال على عشاء دسم من كبابجي هشام، ثم عاد إلى علي علي، يحمل خيبته، فواساه الأخير وقال:

- لم أرد إحباطك ولكن كما قلت: لن يختار الفراعنة تلك البقعة الخراء لأي شيء.

وشرح له طرقهم في الرسم، والفنون التي ابتدعوها، حتى أدخله إلى عالمه الخاص الملون، ولكنه لم يفلح في تحسين المزاج المعكر لعم أحمد علي، ولجأ هو إلى فتحية الطليانية كمسوغ حقيقي للحياة، فصار يقودها بعنف أكثر، ويقطع بها الطرق بغل قائد قطار، ويتشاجر مع الزبائن على أقل سبب، وفي وسط هذا، رأى في المنام أنه يقود فتحية، وأن الخرطوم البرتقالي صارت له حياة خاصة، فتلوى مثل الثعبان، وخرجت من فاه بيضة كبيرة ساخنة، فلما حكى لصابرين على الحلم، وكانت تلجأ إلى أمها في تلك الفلمات، قالت:

- تكسب الخير الوفير من الكسح.

فهز رأسه بحيرة، ولكنه لم يتوقع أبدًا ما وجده بعدها بشهرين، في يوم معتم من أيام نوفمبر، غامت فيه السماء، وغرقت الشوارع فيه ببرك مطينة، فاستدعاه الأهالي لأكثر من مكان حتى يقوم بالكسح وإنقاذ الشوارع من غرقها.

كان بمزاج طيب يومها، وأفطر على كبدة وكلاوي ضأن مقلي من أبو رواية، بائع الكبدة الأفضل والأكثر إخلاصًا لكل إكسسوارات اللحوم في المعصرة، كما ضاجع زوجته فور استيقاظه، رغم إيمانه بالمثل القائل:

- لا تصبح ولا تثني تعيش متهني.

وخرج بفتحية الطليانية المغسولة بماء المطر، فتلقى مكالمات هاتفية عدة عن غرق شوارع بماء المطر، وطفو لعربات ودجاجات غارقة ونافقة، فذهب وهو يشق الماء مثل سفينة نوح، ونجح في كسح أكثر من موضع، حتى وصل إلى نواحي الصاغة في شارع المماليك، والقريب من مستشفى المعصرة المركزي، وكان قد ابتعد كثيرًا عن مناطق شهرته ونفوذه، وساعده في ذلك انهماكه في عمله، حتى انتبه بعدها إلى أنه ترك تجارة الزبالة تتفسخ، حتى بدأ صبيانه يلعبون بها الكرة، وفي أثناء كسحه شارع صغير، بلا صاحب، وضع الخرطوم البرتقالي في بالوعة صغيرة على الجانب الأيمن من الشارع، وبدأ في شفط المياه منها، بعد أن مسح الشارع، وعندما امتلأ الخزان، ذهب ليفرغه في ترع الحيز الجنوبي لأرض صندوق الرعاية، وبينما كان يقوم بذلك وهو شارد، مستمتع بمكسب جيد ليوم طويل، نظر إلى السماء، ثم قال:

- ماهو لو تُمطري كل يوم كنا صرنا مليونيرات.

دخن سيجارة لفّها بعناية بقفازيه المحترقين بزفت المجاري، وتأمل انصباب الماء المطين في الترعة، حتى

لمح ظهور ذهبي غريب في متن اللون الرمادي، يتخايل بطريقة معجزة، ثم يطفو للمحة، قبل سقوطه بالداخل. نظر إلى فوهة الخرطوم، حتى يتأكد أنها ليست مخاتلات جنية ترع متمرسة، حيث خبر ظهورهن المتوتر على هيئة كرتية طافية وراقصة، تدعو إلى الالتقاط، فرأى الظهور الذهبي وهو يمرح، خارجًا من الخرطوم، فأطفأ السيجارة، وسحب الخرطوم، ثم تركه يحتضر حبًا فوق الأرض المترية، حتى رأى القطع الصفراء الفاقعة تضيء بوهج فسفوري خفيف في ضوء الغروب القائم، وبنفحة فضية. اقترب فلمسها، وأعجبته البرودة الدالة على عراقة الأصل، وكون حينها نظريته الخاصة بأن كل شيء بارد علا ثمنه، وكل الساخنين خراء.

كانت الحقيقة الأولى، التي أعلنت عن نفسها لحظتها، والتي يُولد كل إنسان وهو يعرفها قبل أن يراها: أنه ذهب، لأنه باللون الأصفر البراق، ومُنظف بمياه المجارير، ومُحاط بوهج سلطة واضحة. كانت لحظة لن ينساها عم أحمد علي، ووصفها بأنها تشبه لحظة عثوره على فتحية بين ركام العربات، عند نبيل الإنجليزي. سجد عم أحمد علي سجدة شكر لله، رغم أن علاقته به كانت علاقة واجب سطحية، بلا اضطرابات روحية أو هم حقيقي، وكان يتعامل بقوانين هذا العالم، وبما تقتضيه الخبرة، بعيدًا عما يتردد في المساجد وغيرها، وعندما كان يصلي، يقوم بذلك بطريقة استعراضية يرفع بها صوته، ويصلي على النبي، كما كان جده يفعل قديمًا في الموالد، ثم يبحث بعينيه عن أي بادرة خطأ، فينهر طفلًا يلعب في المسجد مثلًا، أو يطلب من شاب ناحل أن يرفع بنطاله لأن مؤخرته واضحة وهذا لا يجوز. القصد، كانت سجدته المطينة هذه دليلًا على إيمانه بأن تلك معجزة، نهض بعدها، فنزل إلى الترعة بدون تفكير، وسبح في النواحي القريبة، حتى عثر على قطعتين راقدين قرب قدميه، أخرجهما وعرضهما للفيوم، وكانتا تشبهان ألواحًا ملفوفًا بعناية، علقت به قطع ذهبية حمراء اللون.

عاد إلى بيته ليلتها بعينين غادرهما النوم، ودخل على صابرين بهيئته الضائعة هذه، فقالت:

- يبقى ربنا ناعم علينا بالتجارة ونعمل في الفاعل.

فقال لها، مشوش الذهن:

- كوب قهوة ثقيلة على الشرفة.

جلس بطينه وخرائه فوق مقعد صغير بالشرفة، وأطل على الشارع الضيق بالأسفل، ثم الشوارع المحيطة، حتى وصل بصره إلى منذنة مسجد الحاج عبد الغفور، والحقول البعيدة، وتابع لعب الأطفال في البرك في الشارع، ومطاردات الطين، وشجار بعض النسوة مع توك توك مر بالشارع، فأثار ضجة من الرذاذ الأسود، فخلص إلى حقيقة، أدركها لأول مرة في حياته، وهي أنه يسكن في مقلب زبالة كبير، وأنه اعتاد كل ذلك بحكم العادة وحدها، وخاض في خيالات ثقيلة، بلا ضفاف، حول حلم الثراء الحقيقي، وحياته في شقة حسنة التأثيث في نواحي صقر قريش بالمعادي، وامتلاكه أسطولًا من عربات الكسح، يشفط بها الكحل من عين القاهرة، حتى امتلأ بالفكرة، وأصابته نشوة طارئة، فدخل وتحمم، وتناول عشاءه مع صابرين وعلي، والذي كان هادئًا وخامل الطباع مثل أمه، فأنهى حلة الملوخية وحده، وأكل البطة بعظامها، فشعرت صابرين بالقلق وسألت:

- هل تزوجت علي يا أحمد؟

فأجابها بثقة:

- لا يفرح الرجل بالمرأة بتلك الطريقة.

ثم نهض متمتعًا بحالة الغموض التي أثارها، فنام لأول مرة بالعاشرة مساءً، يخوض في بركة ذهبية في حلم أخضر غريب، رأى فيه قرموطًا أسود يطل له من بين شموس الذهب الزائفة، وحاول الإمساك به، لسبب لا يعرفه، ولكنه كان يهرب من يديه بجسده الناعم المزفلط.

في اليوم التالي، كان أول شيء عمله هو الذهاب ناحية الشارع الضيق، المتفرع من شارع المماليك، قرب مستشفى المعصرة، وهو يربط بين ذهب ساعة سعده وبين الصاغة القريبة. كانت القصة، والتي لن يعرفها عم أحمد علي أبدًا، لأنه خاف أن يسأل فيكشف سره الذهبي، هو أن المصانع الصغيرة، في الصاغة القريبة، تقوم يوميًا بعملية غسل الذهب وتنقيته من الشوائب المعدنية العالقة به، وأثناء الفلترة، تبقى قطع صغيرة أو كبيرة، تُلقى في المجارير، باعتبار أنها لن تهم أحدًا، ومع بقائها طافية فوق الخراء بالأسفل، تتجمع في أماكن بعينها، مثل آثار نفيسة غارقة تنتظر الانتشال، وكان ذلك من حظ عم أحمد علي، والذي ظن ذلك من ألعاب الشياطين الخفية، والتي تسرق الذهب من الصاغة، فتبقيه في المجارير عبثًا ليس إلا. قام بكسح البالوعة الموعودة بدون طلب، وعندما ظهر له رجل فسأله عما يجري، قال له:

- لا شيء، متبرع بكسح بعض الأماكن منذ مطر الأمس زكاة عن عافيتي.

كانت فكرة ناجحة، فبعد أن فرغ من كسح البالوعة، اتجه إلى كسح بالوعات أخرى في عدة مناطق، لتأكيد فكرة تطوعه هذه، حتى مر الصباح بلا مضايقات، فاتجه إلى ترع الحيز الجنوبي، وأفرغ الخزان على الأرض، جوار الترعة، وظل يتابع السائل الأسود، كريه الرائحة، حتى لمح بارقة الذهب إياها، فانتزعها من وسط ما وجده وهو يضحك، وقال:

- سعيد الحظ يلاقي الذهب في الخراء.

وعندما عاد ليلتها، تحمم جيدًا، وتعطر بعدها، ثم خرج أمام أنظار صابرين، فجلس في الشرفة، يتأمل حياته القديمة بعين الانتصار، وتعامل مع صابرين بمزاج رائق، ما عزز فكرتها عن زواجه بأخرى، وهو ما جعلها تقرر زيارة علي علي، في مشغله، حتى تعرف سر ما جرى لزوجها، باعتباره صندوقه الأسود.

كان الغريب في القصة كلها أن عم أحمد علي لم يحكِ لعلي علي عن قصة الذهب العالق في بالوعة الصاغة، ولم يكن ذلك بسبب خوفه من معرفة صديق عمره، وإنما قلق صحي من انكشاف الأمر وانتشاره، عن طريق الخطأ، حتى يصل إلى الحكومة، ولذلك قرر الحفاظ عليه سرًا، حتى يرتاح إلى استقرار اكتشافاته. التأخر البسيط هذا، لم يفهمه علي علي، عندما جاءته صابرين، فقالت له بلا مقدمات:

- جئتك من أجل خراب بيتي.

فأجابها بذعر:

- ولكنني لا أخرب البيوت.

فعلقت:

- جئتك لتنقذه من الخراب.

بثت إليه كل شكوكها، مرة واحدة، وبينما كانت تتحدث، طيّر هواء المروحة جزءًا من غطاء رأسها، فانكشف عن شعر بني لامع مثل شرش كيزان الذرة، فأصيب علي علي بصدمة بصرية طارئة، ولاحظت صابرين ارتباكه، لأقل من ثانية، فأعادت غطاء الرأس سريعًا، وأكملت الحديث وهي تفكر في أن الرجال سواسية في الدناءة، حتى وصلت إلى تحليلها الخاص بزواجه من أخرى، فقال علي علي:

- لن يفعل أحمد علي هذا، ولعله أمر يخص مشروعًا جديدًا من مشاريعه.

ثم ساق لها أدلة مناسبة، فوجئت معها بألوان أفكار زوجها المتعددة، حتى شعرت بغيرة طارئة مما يعرفه علي علي عنه، فقالت بغيظ:

- ده ولا كأنك ضرتي.

فقال مبتسمًا:

- هكذا هي الصداقة.

ثم ضيفها على زجاجة سفن أب، وبدأت حينها، مع ارتياحها لما قاله، تمسح الورشة ببصرها، وتتأمل جنة الألوان والرسوم، وصور ليلى علوي المنتشرة في كل مكان، لا تواجهها في العدد ولا السلطة الناعمة سوى صور يسرا، فعلقت:

- ليلى أحلى من يسرا، يسرا بنت ناس ولا تشبهنا.

فكر أن يجيبها بمدح لجمالها، والذي انكشف جزء منه لثوان، ولكنه تذكر عم أحمد علي، فآثر الصمت، مستمتعًا ببتوليته من أجل صديق عمره، حتى غادرت صابرين الورشة وقد اتفقا على أن يتأكد من طيبة نوايا عم أحمد علي.

في الأيام التالية، انهمك عم أحمد علي في عمله الجديد، وهو يجمع قطع الذهب، ويضعها فوق بعضها البعض مثل عجوة ذهبية، حتى أيقن أن القطع تزيد في ماء المجارير كل أربعاء، وخمن سبب ذلك في نزول الناس للشراء أيام الخميس والجمعة، ما يدفع الجواهرجية والصائغين إلى الإسراع في العمل، وتنظيف القطع الكبيرة من الشوائب التي تُلقى في المجارير، ولأنه ظهر بمظهر الرجل المُجد، صاحب الأفضال والكسح المجاني، منذ اليوم الذي غرقت فيه المعصرة ونواحيها وأرض صندوق الرعاية، فقد جاءه عجوز ضامر ذات يوم، مع ابنه، وتوقفا بعربة حسنة المظهر، ونزل فأعطاه مظروفًا ممتلئًا وساخنًا، وشدد على يده وقال:

- ربنا يكرمك زي ما كرمتنا.

فقال طواعية، وبحس مبالغ فيه للمزاح، اكتسبه مع صفاء باله من قصة اكتشاف الذهب هذه:

- ربنا يكرمنا جميعًا يا حاج كما كرم السادات.

أثنى الرجل على همته في زمن الخسة، ووعده بمظروف مثل ذلك، كل أربعة جمع، مقابل مساعدته، وقال له بالحرف:

- هذا غير أجر الله وأجر الله ثقيل.

كانت لفتة غير متوقعة، اعتبرها عم أحمد علي من باب حسن حظه، وقال ملخصًا ما شعر به وقتها:

- كان تأكيدًا أن الدنيا عندما تُفك بتفك.

كان قد اعتاد إخفاء الذهب في كبوت فتحية الطليانية، في خمسة أكياس بلاستيكية، موضوعة بطريقة ماتريوشكا، وكلهم في قماشة حمراء، وكان يضعها داخل علبة زيت صغيرة لا تثير الاهتمام، لأنه خشي من تطفل صبيانه على فتحية، حيث كان أصغرهم يحب اللعب فوق خزانها، بينما كان الكبار يركبون في الكابينة، ويتمتعون برؤية العالم من منظور عم أحمد علي، وهو ما كان يواجهه بقسوة وشباب حارق. قام بوضع ما وجده يومها، بعد أن غسله بالكلون، كما تعلم من صائغ سأله في الصاغة، ثم ذهب إلى كبابجي هشام، فابتاع كيلو بمستلزماته، ثم ابتاع خمس زجاجات بيرة من ثلاجة أبو أمل، وعدة علب معاجين وألوان فوراتول، ودخل بهم على علي علي، وهو يقول:

- ليلتنا فُل الليلة.

قضيا الليلة معًا حتى الفجر، وراقبه علي علي وهو يتجاوز الحد في المزاح، وكان مزاجه محلقًا، حتى إنه طلب منه فيلمًا أحمر من ذوقه، فاختار علي علي فيلمًا من فضائل الفيديو، جُمعت فيه مقاطع منتقاة بعناية من أفلام أجنبية، ولكنه لم يمنع نفسه من التفكير في صابرين، طوال الفيلم، رغم المشاهد الجهنمية، ولا من الإصرار على تخيلها مكان الممثلات على الشاشة، كلما حاول إبعادها بدافع أخلاقي بحت، حتى الزعج في

منتصف الفيلم، وسأل عم أحمد علي باستنكار:

- مش ربنا تاب عليك بالزواج؟

فقال عم أحمد علي وهو يضحك:

- الرجل لا يكفيه ولو نهر من النسوان.

فقال علي علي بعفوية وبأمر القلب وحده:

- ربنا يعينها الست صابرين.

ثم أمسك لسانه باقي الجلسة، لأنه شعر أنه وصل إلى الناحية الأخرى من الخطر، فأصيب بوهن واضح، جعله يفقد مزاجه دفعة واحدة، لينهض بعد الفيلم، ويبدأ في رسم لوحة بلا معنى ولا هدف، ملينة بالوجوه الصارخة والأعين الملتاعة، رآها عم أحمد علي تجسيدًا لجهنم، فسأله بجدية:

- لم تلهمك أي واحدة من النسوان الجاحدين في ذلك الفيلم لترسمها؟

فقال علي علي، وقد عاد للوقوع مرة أخرى في بئر صابرين:

- رسم جسد المرأة أكثر صعوبة من رسم كتاب حياتي.

لاحظ عم أحمد علي اعتلال مزاجه الحقيقي، فسأله عما به، فقال علي علي، عندما وجد سببًا مقنعًا:

- حالة فقر فني يا صاحبي.

فلم يجد عم أحمد ما يقوله، واكتفى بسرد قصص فتحية الطليانية عليه، ولم يظهر أي لمحة من موضوع الذهب، حتى خلص علي علي إلى أن شكوك صابرين حقيقية، وهو ما أهله إلى فكرة سوداء حول طلاقهما، وقد أسعدته الفكرة قليلًا، ثم أفاق منها على ضحكة قوية من عم أحمد علي، عندما فرغ من قصة رجل غرق في مصرف حوله إلى حمام سباحة أورديحي.

والغريب أن عم أحمد علي لم يدرِ السبب الحقيقي في اخفائه قصة الذهب عن علي علي. فسره في البداية على أنه خوف من انتقال القصة بالخطأ من لسانه إلى مسمع أحد، ولكنه فوجئ بأن في قلبه عطبًا ما، جعله يرى علي علي، أو صابرين، أو العالم كله، موضع شك مستحق، فآثر الإخفاء، وداوى جرح الثقة المتعفن في جسد الصداقة العظيمة بوعد، بينه وبين نفسه، أن ينوب علي علي من الحب جانب، ويساعده في تكبير الورشة، وتحويله إلى فنان كبير.

في ذلك الوقت، كان علي علي قد توصل إلى أنه يحب المرأة من شعرها، وكان ذلك عندما كان جالسًا يتأمل بأسى سبب انشغاله بصابرين، فتذكر مع ذلك كل قصص افتتانه القديمة، والتي كانت تمر عليه مرور الحبر على الماء، وكان العامل المشترك فيها جميعًا هو شعر المرأة: شعر مدرسته في الابتدائية، أبلة ميري، البني المحمر، والذي كانت منه نثرات فوق ذراعيها، وشعر فتاة، رسم لأبيها صورة ضخمة وهو يحمل أوزة ملوكي، في محل الفرارجي الذي يملكه، وكان ناعمًا ومغريًا باللمس، وشعر يسرا في فيلم الإرهاب والكباب، أو الفيديو القصير جدًا، والذي سبب له مرضًا بالبطن لأسبوع وشوقًا مضطرمًا، الذي غنت فيه أغنية جت الحرارة، وعندما تجاوز كل محطات شعر نسائه التي لم يتحدث مع واحدة منهن قط، ولم يعاملهن إلا في خياله، ووصل إلى محطة صابرين، توصل إلى حقيقة أن شعرها مختلف تمامًا، وأنه لم يرَ واحدة بشعر كوز ذرة، فقرر رسم أكواز ذرة بأحجام شتى، ومظاهر بشرية، حتى وصل إلى رسم صابرين بوجه ذهبي، وشعر الشواشي، وارتاح قليلًا من أفكاره، وكان له أن ينسى ذلك الخلل الطارئ لولا زيارة صابرين له مجددًا، لتسأله عما توصل له مع زوجها.

أخبرها بصدق أن عم أحمد علي لم يذكر سيرة زوجة أخرى، ولكنه صرف كثيرًا بالليلة السابقة، وكان من الواضح أن مزاجه في العالي، ثم قال:

- ولكن عم أحمد مزاجه جيد.

فقالت بثقة:

- لا تسألني عن مزاج من يعمل في الخراء.

كانت شكوكها قد تأكدت من ابتعاده عن ألعاب الفراش التي يدمنها، وفتوره تجاه علي، والتزامه الصمت، ووقوفه في الشرفة لساعات، يتأمل الشوارع، ولذلك فقد قررت الخوض في المسألة بجرأة أكبر فطلبت من علي علي، وبدون خجل، أن يراقبه لها يومًا، حتى تدرك الحقيقة. والغريب أن صابرين، لم تكن تدرك، رغم خبرتها الجيدة في فهم دوافع الرجال، أن علي علي ينفذ مطالبها بدافع من الحب المندفع، وتفكيره المحموم في شعرها البني، وكانت ترى ما يفعله مروءة طبيعية، ومع غيرتها من وجوده في حياة عم أحمد علي، واستئثاره بلياليه، تعجبت من سهولة بيعه صاحبه بتلك السهولة لأغراض الجدعنة، وشعرت بثقة قوية في نفسها لأنها استطاعت التأثير في صداقة قوية امتدت لعقدين على الأقل، ولكنها احتفظت داخلها بالشك في انكشاف أمرها، وهو ما جعلها تقرر مراقبة علي علي نفسه، حتى تعرف ما يتم في حينه، وتتوقع الصدمة القادمة.

في اليوم التالي، وبعد ليلة مملكة مع عم أحمد علي، تتبع علي علي سير فنتحية الطليانية بدراجته، بينما تتبعهما توك توك يُقل صابرين، حتى وصل عم أحمد علي إلى طريق المعصرة الرئيسي، فأضاعه علي علي، ووقف منهكًا، يبحث عن النفس في غُلالة من الكدر، فعاد من حيث جاء، لتتيقن صابرين أنه حاول فعلًا تتبع عربة الكسح الهائجة وأنه نظيف، وهو ما جعلها تراه في ضوء جديد كرجل نادر، ملتزم بمساعدة زوجة صديقه، ولو على حساب الأخير، فبدأت تتخيل حياته السرية داخل الورشة، وترى تكسبه من الرسم أفضل كثيرًا من التكسب من كسح الخراء، وهو ما أصابها باضطراب وحالة غضب شاملة، ضربتْ معها علي الصغير مرتين، وأحرقت حلة أرز، وفشلت في إحكام صنعة شوربة اللسان عصفور فتشربت المرق، وصارت طبقًا من المكرونة، وتشاجرت مع أختها سميحة في الهاتف، ووصفت الرجال جميعًا بأنهم سبب انحلال الحياة وغضب الله.

ما حدث فعلًا، أن علي علي لم يستسلم، ولكنه ظل منتظرًا ظهور فنتحية قبيل العصر قرب الحيز الجنوبي، كما ذكر عم أحمد علي سابقًا في معرض حديثه عن تلك النواحي الضائعة، وقد رآها فعلًا، وهي تشق الأفق البرتقالي بضجة، وتسير متراقصة، مثل سيدة سمينة، فوق الطريق غير الممهد، حتى أوقفها عم أحمد علي أمام الترعة، ثم نزل ووضع الخرطوم فوق الأرض، وبدأ يفرغ الخزان، وعلي علي يراقبه من خلف أجمة شجر على جانب الطريق، جني رأى النبض الذهبي لقلوب صغيرة، مفعمة بالأمل، من وسط الرعب الرمادي للمجارير، ورأى عم أحمد علي وهو يخرج منخلًا من كابينة العربة، ويضع فوقه القلوب، وينخلها حتى تراءت له جميلة مثل الشمس، نظيفة مثل جسد إله يوناني. انبهر علي علي بالمشهد، وقال رغمًا عنه:

- يا ابن الايه يا أحمد يا علي! مرزق، عندك ذهب في البيت وذهب في الكابينيه.

وانتظر بعدها لساعة، قبل حركة عم أحمد علي ومغادرته المكان، ثم ذهب إلى الورشة لينتظره، وكان يشعر طوال الطريق بوخزة ضمير خفيفة أسفل عموده الفقري، انتشرت أعلى بطنه مثل زائر غير منتظر فتألم وأطلق فسوات كريهة الرائحة، ولجأ إلى شرب الليمون، بلا سكر أو حب، حتى يفيق من تيه الأيام الماضية.

جاءه عم أحمد علي في الوقت المعتاد، وضيفه على دجاجة مشوية بالسلاطات، وانتهيا معًا من الوجبة بعد ساعة من التلكؤ الحميد، واحتفظ علي علي بابتسامة واسعة طوال الجلسة، وخاض مع عم أحمد علي حديثًا حرًا حول النساء والفن، فسأله عم أحمد علي بفضول:

- وهل حاولت رسم واحدة عارية أم لا زالت صعبة كما قلت؟

فقال علي علي:

- كل فنان يدشن فنه برسم واحدة عارية ولذلك يجب أن أفعل ذلك عاجلًا أو آجلًا.

كانت جلسة طيبة، انتهت ببدء علي علي محاولات مزهقة لرسم جسد عاري لامرأة طويلة القامة، وتابعه عم أحمد علي بسعادة. كان عم أحمد علي، وبعد تراكم الذهب إلى كمية يمكن أن تقيم تمثالًا صغيرًا، قد قرر ضمن قراراته المستقبلية بناء على الثراء القادم، تغيير عتبة بيته، أي تغيير صابرين بأخرى، خاصة عندما لمس الفتور المتنامي في طباعها ناحيته، وقيامها بأفعال الفراش من باب الواجب.وحده، وبلا شعور أو رغبة، وقد فسر ذلك بأنه من باب الاعتياد، كما التفت إلى أن الأغنياء كلهم يستمرون في الحياة طويلًا، وبصحة كافية لمواجهة الموت مبكرًا، بسبب تجديدهم كل ما يمتلكونه بين الحين والآخر، أو كما لخص بقوله:

- قبل أن تبلى العربة يبتاع جديدة تجدد له دمه.

كان مخلصًا لطبيعته في النهاية، وحبه للتجديد، ورغم وضعه كل شيء رهن الاستبدال، لم يبدل علي علي في خيالات الثراء هذه، وإنما وضعه في ورشة أكبر، وتحت يده عمال مخلصين وعفاريت وعاملات مخلصات ومحبات، فيصير فنان لافتات أكبر، ويكون لهما عش خاص محاط بالألوان والرسوم، كما لم يبدل فتحية الطلياتية، باعتبارها وجه السعد، فقرر تجديدها، واستبدال الخزان بآخر أكبر، وتغيير ألوانها، وتكوين نواة أسطول من فتحيات قادرات على كسح خراء المدينة كلها. كان متفائلًا إلى حد الإيمان الكاذب بأن الحياة يمكن أن تبتسم مرة وإلى الأبد، ولم يكن قد قدر قيمة الذهب بعد، فتجار الصاغة المخضرمون يدركون أن عملية الطلاء والصناعة والتنظيف تشمل هادرًا مستديمًا بين الحين والآخر، وكانوا يجمعونها بطرق معقدة قديمًا، ويتفقون مع عمال المجارير حتى يجمعوها لهم ويشتروها منهم بسعر المصنعية، وكان اليهود من التجار تحديدًا يعيدون صناعتها على هيئة شمعدانات شباعية كئيبة، يضعونها فوق مذابح سرية في ورشهم، ويقدسونها لأنها تذكرهم بما تكفله اليهود وقت خروجهم مع موسى من مصر، وتسولهم الذهب من المصريين، وبحثهم عنه في الممرات البعيدة بين مقابر البر الغربي، وفي صرف قاعات التحنيط وأماكن راحة الموتى قبل استكمال رحلتهم. اندثرت تلك الصناعة الهامة مع عصور الانفتاح والتهاون، وظل البعض على العهد، حتى اندثرت معه الطرق الخاصة في البحث عن الذهب بعتمة المجارير، وكان آخرهم وأشهرهم هو عم جرجس الغُراب، والذي كانت له سحنة غراب حزين، وعينان فاترتان، وطباع خاملة تناسب الظلام، وكان يحيا في غرفة خاصة بمدينة المجارير السفلية، ويعرف الفئران بأسمائها، وقد شوهد أكثر من مرة بوجه أسود من ماء الصرف، فسمي الغُراب، خاصة عندما تردد بين عمال الصرف الآخرين أنه يشرب ماء المجارير بطريقة طبيعية، ومقاوم لكل صروف الضياع والمرض والموت كشيطان أعماق متمرس. لم يعرف عم أحمد علي بكل تلك التفاصيل، وقدر ثمن الذهب المجمع بنصف مليون من الجنيهات، في مبالغة ترقى إلى التجديف، وكان ذلك بسبب أنه باع قطعة صغيرة منها، على أنه عامل مجارير، وجدها في بالوعة بمكان خاص، وقد باعها لتاجر صعيدي مسيحي، بلدياته، اسمه روماني شحاتة، قدرها بأسعار عيار ٢١، فأعطى فيها ثلاثين ألفًا لعم أحمد علي، وأخبره بلا مواربة أنه لا يكترث بفاتورة موثقة طالما لن يغيره عم أحمد علي بصائغ آخر. كان تهديدًا ناعمًا، فهمه عم أحمد علي سريعًا ولكنه لم يهتم به، وإنما قال بغضب:

- لم يتبقَ سوى واحد نصراني جبان يهددني!

حصر بعدها كل تجار الذهب الذين يتعاملون بلا فاتورة، وقرر توزيع البيع عليهم، حتى يعثر على التاجر المثالي الذي يتواطأ معه بلا أسئلة، وكان يغرق في تصوراته الزائفة عن قيمة الذهب هذه كلما باع قطعة، حتى وقع في كارثة الإفراط في التخيل، وهو ما أكسبه طبيعة لا مبالية بالعلامات الغريبة ولا تغيرات من حوله. فعندما أكمل علي علي رسمة المرأة العارية، لم يربط عم أحمد علي بين شعرها البني الطويل، وبين شعر صابرين، ولم يلمح التشابهات الروحية الواضحة، والتي انبثقت عنها النظرة الجريئة والابتسامة الهادئة، غير محددة التعابير، مثل موناليزا محلية لأرض صندوق الرعاية، بل أثنى على فن علي علي، وعلى خلقه امرأة من الخيال، ولا كل النساء، ثم مازحه وطلب منه تعليقها على أي من جدران ميدان عبد الحميد بدوي في الحي،

ليرى كم واحد سيطلق زوجته أو ينبهر بالصورة. كان علي علي، والذي رسم الرسمة بدافع الشوق وضلالات الحب المتعبة، قد فوجئ بعد فراغه منها بأنها تصور صابرين كما يراها في خياله، فابتلع ريقه بصعوبة، وأصيب بحالة تعرق مفرط، ثم نظر إلى عم أحمد علي بوهن، منتظرًا الضربة القادمة، ولكنه بوغت بضياعه في مهب خيالات أخرى، وعدم ربطه بين الرسمة وصابرين، وفي هذه اللحظة تحديدًا، عندما وصل علي علي إلى ناحية تخطيه الخوف من عم أحمد علي كزوج غاضب قبل أن يكون كصديق، قرر بوازع من اندفاع محموم هيأ له أن الحياة نجمة يجب أن تُقتنص بسرعة، أن يفاتح صابرين في موضوع الذهب، ثم يفاتحها بعده في أمر مشاعره ناحيتها، مرة واحدة وإلى الأبد.

جاءته صابرين بعدها بثلاثة أيام، أحرق فيهم الانتظار برسوم عاطلة، ولاحظ فيها عم أحمد علي فتوره فنصحه للمرة الألف أن يتزوج ويستقر، وكانت أكثر تباسطًا في تلك المرة، ولفت الورشة بألق أميرة، فسألته عن اسم كل رسمة، واستمعت إلى حديثه الحماسي عن أنواع اللافتات وطرق الرسم، وقال لها كذبًا أنه رسم أفيشات فيلم الآخر ليوسف شاهين، ولأنها لم تعرف الفيلم أو المخرج فقالت بانبهار:

- أنت فنان إذن يا فنان.

وبعد حديث ودي، سقط فيه علي علي بحب الاهتمام الذي أبدته صابرين، سألته عن آخر الأخبار بفتور أدرك معه أنها جاءت لرؤيته في المقام الأول، فقال لها مرتبكًا، وهو يشعر بسخونة الحديدة التي بدأ يحكم قبضته عليها، تشق طريقًا بائسًا ومتسخًا ناحية نهاية محتومة، عن قصة الذهب السابح في المجارير، ووصفه بأوصاف فنية، فقالت:

- يعني أحمد بقى مليونير؟

ثم كشفت ذراعيها البضين لتعرض المصاغ الذي ترتديه، فتأمل علي علي يديها، وشعر أن لهما طابعًا أموميًا جديرًا بالاعتناء، مانحتان بلا توقف، فقال لها:

- ربنا يكرمه يا ست صابرين، كله من أجل علي الصغير، المهم أننا اطمأننا على أنه سليم ولا حريم في الموضوع.

كان مصاغها عبارة عن ثلاث أساور من الذهب، وماشاء الله واحدة، وكانت تواجه مشكلة حقيقية مع طرق عم أحمد علي في الصرف، عزتها إلى طبيعته الأسيوطية، وظهرت تجلياتها في نقاش حار ومتكرر حول الأرز المتبقي في الإناء، والذي كان عم أحمد علي يكحته بشغف ويتناوله وهو يؤكد أن الأرز المحروق له مذاق السكر، وعدد العباءات التي تشتريها صابرين من خروجات العتبة والأزهر، واشتراكات الانترنت والقنوات الفضائية، ولكن كدره المصاحب للصرف زاد بعد تغيره الأخير، حتى ربطت ذلك مع معرفته بامرأة أخرى، وقالت لعلي الصغير يومًا، وهي تفتح له غلبة جبن دومتي على الغداء:

- كل وابك فأبوك صار يصرف على البيت الآخر.

ورغم ذلك، كان لعم أحمد علي شطحات مالية لا تُنكر، فقد كان يأتيها أحيانًا بتموين شهرين كاملين، أو يذبح خروفًا بلا تمهيد، يحشر لحمه في فريزر الثلاجة وفي الفريزر الصغير الذي اشتراه، أو يبتاع لها ثلاثة عطور بسعر واحد أو شباشب جديدة -وكان مغرمًا برؤية قدميها في الشبشب، بطريقة ترقى إلى الهوس، وهو ما كان يسبب لها خجلًا أحمر وارتباك يدفعانها إلى الاهتمام بمظهر أظافرها- أو إيشاربات جديدة، ولكنها كانت شطحات نادرة في بحر من البخل الصريح. لذلك، عندما سمعت بقصة الذهب في المجارير، ضربها الغضب، فبدأت تعدد دلائل الشح وتذكر كيف أنه منع الذهب عن البيت حتى يمتلك أسطولًا من فتحيات أخريات، وكان علي علي حينها يطهى على نار التعاطف، فيقارن بين ما تقوله وبين ما يقوم به عم أحمد علي معه يوميًا، وهو ما أربكه قليلًا لأنه يعني أن صداقتهما قوية، تفوق علاقته بزوجته، ولكن موجة الغرام اجتاحت تلك الفكرة بفكرة أكثر وضوحًا: هذه الحمامة البيضاء السمينة واقعة في مجارير عم أحمد علي بلا سبب سوى القدر.

تركته بعد أن كشفت عن رأسها بحجة التهوية فظهرت نفحة من الشلال البني، وخلفت وراءها عطرًا ثقيلًا برائحة الكانتالوب، فحسم علي علي حينها شكوك قلبه، وبدأ يفكر كأنه ليس هو، سيقول بعدها وصفًا لتلك الحالة السوداء:

- كنت وكأنني أمثل دورًا مكتوبًا لي وليست عندي القدرة لتغييره.

كان عم أحمد علي قد جمع غلة كبيرة يومها، وكانت القطعة التي وجدها تطفو فوق الخراء تشبه وجهًا مشوهًا، لو كان يعرف في الآثار، لقال أنه وجه الإسكندر بعد أن أصابه الوباء أو ضربه الزمن، والحقيقة أن القطعة نفسها قد وقعت في المجارير لسبب غريب واستثنائي، ففي محل رامي اسطفانوس للمجوهرات، كان الصائغ المعلم جورج اسطفانوس، عم رامي، والذي تخطى ثمانين عامًا، وتشرب الصنعة من اليهود الأوائل، قد قرر، على غيار ريق، وبعد أن شرب كوب الليمون الساخن، والذي اعتبره دائمًا بركة الرب الحامضة التي منحها للإنسان حتى ينظف دمه من ألعاب الشيطان المميتة بالسكر والدهون، أن يصنع قناعًا للإسكندر الأكبر من الذهب الخالص، ويبيعه كقطعة لا تتكرر لأحد أفراد أسرة بترودوس اليونانية العريقة في الإسكندرية. بدأ يومه بتشكيل الوجه، ولعب عليه حتى كلّت عيناه، وعندما دخل عليه رامي في الورشة بالداخل وسأله عما يشغله عن الزبائن والعالم، قال:

- أبحث عن توقيع يخلدني بين الناس، فالغويشة ليس عليها اسمي.

فضحك رامي، وطلب له علبة كشري معتبرة، أكلها المعلم جورج، ثم أكمل عمله، حتى أصابه النوم فهام في بحر القيلولة، فوق الأريكة الموضوعة أسفل صورة كبيرة للبطل الروماني، وعندما نام، حلم أن إسكندر فضيًا يطارده برمح في ممرات ورشة ضخمة، وعندما صرخ وسأله عن هويته قال:

- أنا هو الذي هو هو.

وعندما استيقظ المعلم جورج، وجد أن القناع قد احترقت منه أجزاء بسيطة، ولكنها كانت كافية لتظهر وجه التمثال على هيئة شيطانية، فأمسك القناع بقلق، واتجه إلى البالوعات الخلفية التي ينظفون فيها بقايا العمل، فأمسك بقطعة الذهب التي تزن جيدًا، وألقاها وهو يقول:

- وهبتك لله مقابل إنقاذ روحي من إبليس.

ثم عاد ليكمل يومه بمزاج طيب، وهو يثني على نفسه لأنه واجه معضلة أخلاقية وكان قطعة أصيلة من صراع بين الخير والشر، فانتصر على غريزته الذهبية في النهاية، وألقى بالقطعة إلى الجحيم، وعكف بدلًا من ذلك على صياغة تمثال بالحجم الصغير للأنبا إبرام أسقف الفيوم القديم، وصاحب المعجزات الكثيرة، فلما دخل عليه رامي مرة أخرى بالعشاء، وكانت شطائر شاورما سورية، ووجده يشكل التمثال وسأله عما يفعل قال:

- أمامي شهر وأنجز تمثال التماثيل، وهذا هو توقيعي.

فقال له رامي بحذر:

- الخام ناقص، فلا تزد يا معلم.

فابتسم المعلم جورج وقال:

- سيزيد وربنا هيبارك.

تلك القطعة المشئومة، والتي سبحت في المجارير وقاومت مصيرها الحزين بوقوعها في خزان فتحية الطليانية، ثم ظهورها لعم أحمد علي، مثل مفاجئة غير متوقعة، كانت السبب في التعجيل بخاتمة ملحمة الصداقة بين عم أحمد علي وعلي علي.

اعتبرها عم أحمد علي فاتحة الخير ودرة التاج، ونظفها بثيابه ولعابه، وغلفها بكيس أسود لا يليق، حتى لا يلفت النظر، ثم جلس في العربة ليلتقط نفسه. شعر بالقلق، للمرة الأولى، منذ بدايته طريق التنقيب هذا، وفكر في التخلص السريع من القناع الغريب. كان يخرجه بين الحين والآخر وينظر له بتبتل، ثم يعيد ترتيب حياته على أساسه، وقذن بسذاجته نفسها، وبكثير من الرعونة، أنه يتعدى مائتي كيلو على الأقل، وضرب حسبة في الهواء، دفعته إلى مغادرة الخوف والدخول في رحاب الاندفاع، فقاد عربته سريعًا، وقطع الطرق بطريقته الطبيعية التي تثير الضجة والغبار، وكان أكثر من واحد يلقي عليه التحية، فلا يجيب سوى بضحكة غريبة، حتى وصل إلى ورشة علي علي بعد أن ابتاع الكباب من هشام، والبيرة وباقي المشتملات، وقرر ليلتها أن يخبره ببعض القرارات التي سيتخذها قريبًا، والتي تخص انتقاله لشقة جديدة وتغييره لزوجته، وكل مساوئ التفاؤل، ولكن علي علي، والذي كان قد قضى ليلته مؤرقًا، يفكر في طريقة يحسم معها آلام قلبه، وشعوره بالضغط، وصل إلى فكرة مرتجلة، نفذها بدون مراجعة مسبقة، وهو يرتعش بخفة، فحكى لعم أحمد علي قصة لا تُصدق عن مقبرة اكتشفها البعض عند مستشفى الحميات، وأن حلمه القديم حقيقي، وقال إن صاحب القصة هو رجل مرتاح، طلبه ليرسم له رحلات حج لم يقم بها بعد، وأعراس، وصور تمثله وهو أبو زيد الهلالي أو يصافح الرئيس، وقال إن ثروته كلها جاءت من ذلك، فلفا علق عم أحمد علي بعفوية عن غرابة إذاعة سر مثل ذلك، قال علي علي:

- يقومون بذلك للتباهي: وجدت تمثالًا وحللت كل مشاكلي.

فهز عم أحمد علي رأسه بهدوء، وقال:

- البعض يجدون ما هو أكثر من ذلك ولكن الحرص واجب.

الجملة التي قالها فرحة بإنجازه، وكان يفكر بعدها في قص القصة كلها على علي علي ليبشره بمصيرهما المشترك، وبمساعدته الواجبة له كصديق عمر وكأس ولحم مشوي، فهمها علي علي على أنها إعلان بعدم ثقة عم أحمد علي فيه، وكان يتبع ذلك بتأكيد هش بأنه كان ليتوقف عما قام به، لو كان عم أحمد علي قد صارحه بالحقيقة. كان في حالة إنكار نادرة لسواد أفكاره، ولكن صابرين، التي كانت تظهر له، من خلف كل ذلك، مثل حلم واعد، مع ضربة مخلب واحدة تضمن الثراء، غطت على حسه المرهف للصداقة والإخلاص.

بعد حديث قصير، قرر عم أحمد علي الذهاب بعلي علي ناحية المشفى ومع عدة بسيطة، حتى يبحثا الأمر، واعتبرها رياضة صحية لثري ثراؤه فحقق. وصلا هناك في التاسعة والنصف مساءً، وقاما بالحفر بهمة حقيقية، وعندما وصلا إلى عمل حفرة بعمق كاف لدفن عجل بتلو، نظر علي علي بقلق إلى عم أحمد علي، فهالته قامته العملاقة، والتي زادها الخوف ضخامة، ووجهه الصلب، وعيناه الضيقتان الذئبيتان مثل أعين الصينين، فهبط قلبه بين قدميه.

كانت الخطة التي رسمها علي علي، مشبعة بالفوراتول وزيوت الألوان، تقضي بأن يصلا معًا إلى عمق مناسب في الحفر، ثم يضربه بقوة الخوف، بالمعول الذي يمسكه، ثم يلقيه في الحفرة، ويهيل فوقه التراب، ولكن علي علي فوجئ بأن قتل إنسان أكثر صعوبة بكثير مما تصور، فمع قلقه من الفشل، أطلت له فكرة حقيقة تحكمه الكامل في حياة عم أحمد علي، في تلك اللحظات المتربة والمرتبكة، فحياته بين يديه، وبتقدم خطوة ينهيها، وبتأخر خطوة يحفظ حياته وصداقتهما، وهو ما دفع عم أحمد علي لسؤاله عما به، وربت على كتفه، ليقول علي علي:

- ولا حاجة، ولكن أظن أنني رأيت عفريتًا.

ضحك عم أحمد علي، وحدثه عن العفاريت التي ظهرت لهم وقت بحثه عن الآثار، ثم أكمل الحفر بهمة، وعندها، شعر علي علي بأن كل شيء جاهز للتنفيذ، فضرب عم أحمد علي ضربة سريعة، جعلها الخوف أكثر

حدة مما تصور، وأكثر قوة من قدرته على الضرب، انتفض جسد عم أحمد علي بعدها وهو يحاول الفهم، ثم سقط في الهوة المظلمة وهو يحاول تفسير ما جرى، ولاذ بالإجابة العالقة برائحة الطين الحلوة والمبللة بماء الأعماق. غطاه علي علي بالطين، بطريقة غير مناسبة، ولم يكمل حتى تغطية الحفرة بالكامل، وعاد إلى فتحية الطليانية، وقد خفف العرق وجعله يشعر بالبرودة، فشعر براحة غريبة، دغدغت بطنه، ولم يعف نفسه من تصور طبيعة ما يراه عم أحمد علي حاليًا، في حفرة الآثار المشئومة هذه، ثم قاد العربة برعونة واضحة، قبل أن يغطي نصف وجهه بالشال الصعيدي لعم أحمد علي، حتى لا يتعرف عليه المارة.

وصل إلى الورشة، وركن فتحية بجانبها، ثم دخل وجلس أمام طاولة الرسم والعمل، وشعر أن بالليلة سكون لا يضاهيه أي سكون سابق، ثم بدأ يرسم صورة غير محددة لشيء قلح، لا يستطيع الإمساك به، حتى تراءت له صورة غريبة لعم أحمد علي، وهو ينظر إليه لظرات اتهام مشوبة بالذهول، فقلب علي علي اللوحة، وبدأ يرسم أخرى بجنون وسرعة تضاهيان النقلات الموسيقية لكونشيرتو أورجان، حتى وجد نفسه وقد رسم عم أحمد علي بصورته ضاحكًا، ثم رسمه من ظهره، وهو يشرف على هاوية المجهول، ثم رسمه من جانبه، ولم يحل الفجر عليه، إلا وقد حاول خمسين محاولة ليرسم شيئًا آخر، فلم يرسم سوى عم أحمد علي، حتى انتهى وقد أنهكته المحاولات، فاكتشف بشيء من الفزع، أنه كان يحبه حبًا يفوق ما توقعه من نفسه، فخرج ينظر إلى فتحية المكللة بغبش الفجر، وينظر إلى السماء المرصعة بأناشيد الملائكة الحزينة، والبالوعات والخرائب التي ينبعث منها دخان اختناق الشياطين بالفرحة، فأدرك إعجاز فكرة أنهما تناولا العشاء معًا منذ ساعات، وأن زيارات عم أحمد علي المسائية قد انقطعت للأبد، فبكى حينها بخرقة، ودخل في نوبة ندم حامضة، نام بعدها لساعة، واستيقظ مرتاحًا، وقد استبدلت صورة عم أحمد علي بصورة صابرين.

كان يعرف أنها ستأتيه، فقضى الوقت في التفكير بالخطوات التالية، ثم قرر البدء بتفتيش فتحية الطليانية، لأنه علم بالسليقة، وببعض من معرفته بخط سير عم أحمد علي اليومي، أنه سيضع ثروته فيها، ففتش في الكابينة، ليجد ضمن ما وجد صورًا مختلفة لفتحية، في بقاع بعيدة أو شوارع مألوفة في أرض صندوق الرعاية، وصورتين لعم أحمد علي، إحداهما وهو يقود فتحية، وكانت صورة بجودة عالية، حتى إنه تأملها بحسه الفني، وهو على يقين أنها صورت بكاميرا احترافية، فلم يستطع تحديد مكانها ولا زمانها، ووجد صورة له، ظويت مرتين على الأقل، كانت قد التقطت له في ستوديو سعدة بأزمنة ما قبل صندوق الرعاية، وتظهره شابًا شاحبًا، له عينان ذاهلتان، وقصة شعر منسدلة فوق جبهته وغرف من الشعر ارتفع بلا سبب، مع صورتين لصابرين، أصيب معهما بالتوتر، لأن إحداهما كانت تصورها بمظهر زوجة سعيدة، تستند على كتف عم أحمد علي، في ستوديو ما، على خلفية حالمة من مروج وردية، والأخرى كانت مبللة بماء السعادة، وكان من الواضح أنها التقطت في مناسبة سبوع علي الصغير، لأنها حوت نساء كثيرات وفرحة طيبة وجماعية. لم يتأثر بالعثور على صورته بالكابينة، وضعها مع باقي الصور في جيب بنطاله، لسبب لا يعرفه، ثم أكمل بحثه بلهفة، حتى مسح الكابينة بالكامل. كان مقدرًا له أن يبحث لساعتين حتى وجد القماشة المتخمة، محشورة داخل خزان العربة، في الأعلى بالداخل، وفي موضع تمسه مياه المجارير بدون أن تجرحه، ففتحها داخل الورشة، بطقس شبه متبتل، فوجد قطعًا ذهبية مختلفة، ووجد القناع المذهل لإسكندر كاذب، فانبهر به، ورفعه في ضوء الورشة البرتقالي، حتى قرر، في فورة مجنونة، أقيمت على أنقاض مخاوفه، أن يرسمه حتى تأتيه صابرين فيشرح لها كل شيء. أخفى القماشة في إحدى صناديق أدواته، وخرج بما معه من مال قليل، فابتاع علبة كشري، أنهاها خلال عشر دقائق، ثم بدأ يرسم القناع بتجليات شتى، حتى دخلت عليه صابرين في الرابعة عصرًا، كما اعتادت، فرأت الأقنعة التي كللت عشرة أمتار من جدار الرسم والتجربة، فقالت بعد السلام، وبدون أن تلاحظ القناع الذهبي المشوه:

- لم يعد حتى الآن، بيت عندها.

فنظر لها علي علي، وقال بجرأة طارئة:

- بل بيت عند ربنا.

لم تفهمه سريعًا. ظلت تنظر إليه بذهول بقرة، بعينيها الجميلتين، ثم سألت بهدوء، وهي تحاول البحث عن شعور بالحزن أو الصدمة عندما فهمت:

- مات؟

وضع القناع الذهبي بينهما على الطاولة، وشرح لها، في عرض تنقصه اللياقة، كيف اكتشف أنه كان واقفًا على بئر من الذهب، كان يجده في المجارير بطريقة ما، واكتشف هذا عن مراقبة دقيقة منذ فاتحته في الأمر وأن عم أحمد علي قد أعلن قراره الزواج بأخرى، وترك الحي بالكامل يعفن بالفقر والنسيان، حتى واجهه علي علي بمعرفته السبب، فحاول عم أحمد علي قتله، وما كان من علي علي سوى أن دافع عن نفسه، فحدث ما حدث. كانت صابرين تستمع بهدوء، وتحاول سبر أغوار الرجل الذاهل أمامها، والذي يرتعش انفعالًا، ثم وضعت يدها على القناع الذهبي المشوه، فرفعته لتتأمله، ثم قالت بعد تفكير:

- يمكن أن تُصنع منه عشر أساور وخمسة حلقان وعقد كبير وماشاء الله.

ابتسم علي علي عندما لمح الرضا في عينيها، رغم الخبر الأسود المصبوغ بالدم، والذي نقله بدون تمهيد، فتجاوز الموجة العالقة بجوفه منذ فترة، وتركها تفيض عليه بالملح والغرق الأخير وقال:

- ويعلم ربنا أنني واقع فيك يا ست صابرين منذ رأيتك لأول مرة.

ابتسمت له بعينين شاردتين. كانت تزن الموقف كله بميزان عملي، فمن ناحية، تقف أمام قاتل اعترف بجريمته، ولكنه أضفى عليها ما يريح ضميره، ومن ناحية أخرى، اعترف لها بحبه، وهو ما كانت تشعر به منذ المرة الأولى، وتلذذت به باعتباره شعورًا حلوًا بالانتصار على تجاهل عم أحمد علي، ولكن حزمها المعروف وعقلها الذي لا يهمد، منعاها من التفكير في شيء آخر، ولذلك، قالت له حينها، محاولة البحث عن مساحة للتفكير فيما جرى، واتخاذ قرار صحيح يضمن لها الذهب:

- الموضوع يلزمه حذر وتفكير لأن الناس سيقولون قتلوه وتزوجوا.

فقال علي علي بحماسة:

- نهرب، تختبئين جانبي في فتحية ونترك هذا الحي الكافر.

فقالت صابرين:

- علي الصغير ومدرسته والجيران، وأهلي الذين يزورونا بين الحين والآخر، وصاحب البيت.

كانت شاردة في خيالاتها الخاصة عن حياة بلا منغصات، وخروج آمن وغني من الكارثة، عندما انكشف رأسها فظهرت لبدة الأسد البنية، فتخطى علي علي حاجز الطاولة، وأمسك بيدها وقال:

- أحبك يا ست الناس، ولعل ربنا أكرمني بك وبالذهب بعد حياة من المعاناة.

لم يكن علي علي يقصد ما جرى بعدها أبدًا، فعندما كان يقص القصة، كان يؤكد أنه كان ينوي ترك الذهب كله لها، تتصرف فيه وفق مشيئتها الحرة، وفتح ورشة كبيرة وجديدة، بحجم مصنع خردة عبر عليه صغيرًا، أثناء رحلة هروبه الطويلة، ونام داخله لليالي كثمن لعمله في التقطيع، واكتشف حينها حبه للتفاصيل الحميمة للآلات الضخمة وغرابتها وفرادتها، ولذلك كان يحب وضع آلات خردة، ساعده عم أحمد علي في شرائها، على مدخل ورشته أو بالداخل، أو صناعة سرير من آلة ما، كان ينام فوقه متمتعًا ببرودة المعدن، ولهذا، عندما قاومته صابرين، وفقدت قدرتها على التفكير السليم، واكتشفت فجأة أنه خائن لصديقه، قالت وهي تصرخ:

- لا أصل ولا ملة ولا معروف، وتريدني بالرخيص يا حيوان؟

كانت تعامله حينها بصرامة واضحة قامت على أنقاض إعجابها بهشاشته وعينيه الخاملتين وفنه، ومعاملته لها كأنثى حقيقية، لا كعربة كمسح، ولكنها استعوضت تماديها مع اعترافاته الحارقة هذه، ولذلك سبته وضربته، قبل أن تختنق حبًا وحزنًا بيديه الفنيتين، وهو يحاول إسكاتها، والوصول معها إلى بر الحب.

مددها على طاولة الرسم، وهو يرتعش، ويغلفه نفس الشعور عندما كان ينام ووراءه دين أو كارثة صباحية، مستحقًا في عرقه، وتأمل الوجه الذاهل، والشعر البني الذي صار موجة ثابتة على حركة أبدية، فشعر أنه لا يعرف صاحبة ذلك الجسد، وفكر سريعًا فيما يمكن أن يحدث، ما قام به بعدها، قام به بآلية غريبة، وبدون أي شعور، حيث أخذ يحفر داخل الورشة، في أرضية غرفته الداخلية، بنظام ودقة، وبدون توقف، وتذكر خلال ذلك مقدمة قارئة الفنجان، فدندنها بدون حس، حتى وضع جثة صابرين داخل الحفرة، والتي ظهرت فيها مواسير غريبة اللون، وقطع معدنية، ثم أهال عليها التراب، وجلس يدخن سيجارة وهو يتأمل حياته. استيقظ صباحًا، وفي معدته ألم مؤلم، واستعاد ما جرى بحس خوف جديد، وتوصل، بضربة حظ سيئ، إلى أنه فقد عائلته بفقدانه لعم أحمد علي، فظل يعيد أحداث اليوم، ويحاول منع نفسه مما قام به، حتى قال وهو يبكي، وينظر إلى وجوه الإسكندر المحيطة به:

- سامحني يا عم أحمد، سامحني يا صاحبي.

ثم أقنع نفسه بأنه قتل صابرين لأنها خانت عم أحمد علي، ودمرت صداقتهما، ولكنه لم يقتنع بالقدر الكافي، فأخذ فتحية الطلياني، وعبر بها شوارع الحي، وهو ثمل بطريقة طبيعية مثل ذبابة، غير آبه بنظرات البعض المتعجبة لقيادته عربة أحمد علي الأثيرة، ووصل إلى بر الخطر، حيث المدفن الذي اختاره لصديقه، فوقف أمامه، وقرأ الفاتحة، ثم حاول الحفر ليتأكد مما جرى، فمر عليه توك توك يطل منه شاب غريب الهيئة، وله شعر مصبوغ بالأزرق، فسأله عما يفعل، فقال علي علي بهدوء:

- أحفر لأعمل حفرة للكسح.

فابتسم الشاب وقال:

- فكرتك بتخفي جثة خرمة.

ثم تركه، وهو يمر بالتوك التوك، فلمح جمجمة معلقة بخلفية المركبة، تبتسم بشيطنة واضحة، فأصيب بالهلع، ونظر ناحية مستشفى مبرة الحميات القريبة، ثم قاد فتحية وابتعد بها إلى الورشة مرة أخرى. كانت ضداقته تئن، وكانت آخر نتائج كشف الحساب الذي قام به أكثر من مرة هو أنه خائن صريح، وندل، ولأنه توصل إلى ذلك، متبوعًا براحة ضمير مفاجئة، قرر في فورة الشعور بالذنب وضع الذهب كله في تصرف علي الصغير، فاتجه إلى البناية التي كان يقطن فيها، وصعد الدرجات بطريقة احتفالية، كأنه ينتظر أن يكتشفه أحد، ثم طرق الباب، ففتح علي الصغير وفي عينيه حيرة، فقبله ووضع القماشة أمامه وقال:

- منذ الآن وهذه عائلتك، أخفيها واحتفظ بها حتى تكبر.

كانت رطانة شعرية بائسة، فقد تصور، مثلما تصور عم أحمد علي سابقًا، أنها ثروة كافية لتأمين الحياة لزمن، كما تصور أن علي الصغير يملك الحكمة الكافية للتعامل مع ميراث مبكر، والحقيقة أن الطفل، والذي أخذ يلعب بقطع الذهب، ويخدش بها الجدران بمرح، ويرسم ملائكة وشياطين، ظل على حاله هذه، حتى أصابه الجوع، فخرج من الشقة، وطرق باب جارتهم أم وجدي، وتسول الطعام منها بكرامة وبراءة، فدخلت معه إلى الشقة، فوجدت الذهب المتناثر في كل مكان، فلكزته بقسوة وقالت:

- عيب، ذهب ماما لا نعمل فيه كذلك.

جمعت القطع بصبر وكثير من الفضول، وسامحت نفسها على الفكرة السوداء التي طرأت عليها في أن تحتفظ بقطعة، ولكنها استغفرت الله، ووضعت الكيس في أعلى رف من أرفف المطبخ، وأعدت لعلي بيضًا

مقليًا وجبنًا بالطماطم، ثم تركته وهي تؤكد عليه أن بابها مفتوح كأم. أثناء ذلك، كان علي علي يصوب ما جرى بالوسيلة الوحيدة التي يملكها في هذا العالم، فبدأ يرسم صورة لعم أحمد علي، بجناحين، وجلباب بلدي جميل، وحسن ملامحه، فوسع عينيه الصينيتين، ووسع ابتسامته، وكان يفعل ذلك وهو يبكي بحرقة.

عندما فرغ من تكرار الرسمة خمس مرات، وهدأ قليلًا، قرر وضع فتحية الطليانية أمام صندوق الرعاية، وعاد فذهب لزيارة علي الصغير، فترك ورقة أسفل الباب تؤكد وجود فتحية في مكانها، وأن له نصيبًا في مخازن قمامة، أهملها عم أحمد علي حتى صارت ملكًا لعالم الصبية في الظل. بدأ بعدها، خلال الأيام التالية، رسم الصورة نفسها لعم أحمد علي في كل أنحاء الحي، فطلع الصباح الثالث، بعد ما جرى، ليجد سكان الحي عم أحمد علي يطالعهم بجلباب فاخر وجناحين كبيرين، فوق حائط مسجد الشنية، وفوق جدار المدرسة الحديثة، وفوق الأوتوبيس المهجور، والمتخذ جمعية استهلاكية، وفوق عدد آخر من الجدران، ولم يفهموا سبب ما جرى، حتى ذلك الحين، واعتبرها البعض تأكيدًا شعبيًا لاستشهاد رجل مجهول، بينما كان البعض يقف أمامها، ويسأل:

- مش ده الراجل بتاع الكسح؟

ولم تتأكد الإجابة سوى عندما رن أكثر من زبون على هاتف عم أحمد علي المغلق، وفاضت المجارير في يوم بلا شمس، فبان اختفاؤه جليًا، كما قيل إن عربته وُجدت مركونة جوار مبنى صندوق الرعاية منذ أيام، وهي كلها خيوط لم تتجمع أبدًا، رغم إرادة علي علي، وانتظاره مصيره الحتمي، برغبة مسيحية في الخلاص، حتى دخلت أم وجدي على علي الصغير مرة أخرى، فوجدت الشقة وقد تفسخت بالنتانة، والطفل وقد صنع جبالًا صغيرة من الألاليط في أنحاء الشقة، فقالت مشفقة:

- وتركتك أمك كذلك؟ لا قلب لها منذ البداية.

كانت سيدة طيبة، ومن الأواخر في نوعها بتلك الأيام الجهنمية، فلم تفهم حتى مغزى الرسالة التي قرأتها، وقررت، باجتهاد شخصي، أن تذيع نبأ اختفاء عم أحمد علي مع صابرين في مكان مجهول، تاركين ابنهم لكلاب السكك، ولأن الجميع كانوا يعرفون علاقة عم أحمد علي بعلي بعلي، فقد ذهبوا إليه في ورشته، تباعًا وبلا اتفاق، فوجدوها مغطاة بلوحات عن صديق العمر، وسأله مخبر مشهور، اسمه عباس القرعة- صاحب أشهر رأس أصلع في الحي، والذي كان بحجم رأس عجل صغير، وكان يمارس الإخبار بلا حياء، بوجه مكشوف، ولكنه كان يتلقى على ذلك ثمنًا بسيطًا من القسم في المعصرة، وهيبة مستحقة- سأله عن مصير عم أحمد علي فقال:

- ذهب هناك، عند مبرة الحميات.

فأخذ عباس القرعة الخبر كما هو، ومدده في أذهان الآخرين، فقال:

- علي علي هذا خَلَل، ولعله فقد عقله للأبد بفقدان صاحبه.

ثم أضاف:

- قال إنه صار عفريتًا عند مستشفى العفاريت، والله العفاريت شكت في هذا الزمن الذي صار فيه البني آدم شيطان.

لم تنشأ القضية بالأساس، ولم يشغل أحد باله بالذهاب ناحية مبرة الحميات، وسماع القصص التي كان يرددها الممرضون والممرضات فيما بينهم عن ظهور ضاج ومائي لعفريت مهووس بالخروج من فتحات الكنيف البلدي والألفرانكا، ويعشق إغراق الحمامات بالمجارير وبهاريز الخراء، كما تواصلت أم وجدي مع أسرة عم أحمد علي، فجاءوا من الصعيد، وتبنى أحدهم علي الصغير ليربيه عنده في فيصل، ولأن أم وجدي كانت تخشى على مصير الذهب، فقد أخذته معها، ونذرت نذرًا أن تعطيه لعلي الصغير عندما يتجاوز العشرين، وهو

ما لن يحدث أبدًا، لأن أم وجدي ستصاب بمرض غامض بعد ذلك بعام، لتموت وهي تصلي، ويظل كيس الذهب محبوسًا داخل برطمان فسيخ كاذب، ولن يكتشف سوى على يد عامل حسن الحظ، كان يعيد تجديد الشقة، والتي آلت لمالك جديد بعدها، بعد أن باع ابن أم وجدي الشقة، ليبيعها بالكامل، مع كثير من التردد، إلى تاجر بالصاغة، بمبلغ لا يتجاوز ألفي جنيه، في صفقة خاسرة إلى حد الألم. في الناحية الأخرى من القصة، وبعد زيارة عباس القرعة، أغلق علي علي الورشة إلي الأبد، وأخذ قناع الإسكندر المشوه، ورحل إلى الفيوم، حيث سمع أن هناك قرية مخصصة للفنانين مثله، من يضيقون بمصاعب الحياة، ويقدرون الصداقة حق قدرها، فيحترقون بها احتراقًا، ولكنه، وقبل رحيله الأخير، رسم رسمة كبيرة لعم أحمد علي، على الجدار الشرقي من صندوق الرعاية، أخذت منه أسبوعًا من التركيز، وكتب تحتها آية قرآنية، فكان الناس يعبرون عليه، يضربون كفًا بكف، ويشكرون في الصداقة الحقة والتي عزّت في هذا الزمان، ثم قام بتلوين فتحية الطليانية، والتي نسيها ورثة عم أحمد علي، حتى جذبت الأطفال لتكون سفينة فضاء جالسة، ومحطة ألعاب شهيرة، يكفي أن يشير الطفل إلى موضعها فيقول بثقة:

- سنلعب اليوم عند العربة الملونة.

فنشأت صداقات حولها، واستمرت لفترات طويلة، وهامت عداوات، ونُسيت القصة برمتها، بينما ظل علي علي محتفظًا بها، حتى صنع مجسمًا من الفخار لعم أحمد علي، في قرية تونس بالفيوم، وأسماه صديق العمر، وكانت فاتحة خير عليه حيث تبنته سيدة ألمانية اسمها أولا موندينجن تمتاز بخصلة الانبهار الطيبة، والبكاء عند الشفق، وحب الكلاب والعصافير، فأحبته بصدق، وساعدته على السفر معها إلى معرض لنحت الفخار في ميونيخ، فاكتشف علي علي هناك أن الحياة أكبر بكثير من صندوق الرعاية والفيوم، ولكنه لم ينس صداقته أبدًا، فقرر تخليد صديقه بتمثال جديد، فرعوني الطابع، كتب عليه: لذكرى الصداقة الدائمة، مع أبي وأخي، الفرعون الحي، عم أحمد علي.

https://t.me/riwayat2025 روايات وكتب عربية وعالمية

شكر للصديقة هدير جمال فرغلي
على حديثنا الداقيء الذي ألهمني الكثير

حصريا على روايات وكتب
عربية وعالمية
https://t.me/riwayat2025

٢٧٠٥٢٩٩٣٢٠